الفصل الخامس

العلاقة بين الدولة الأتابكية والأسرة الأيوبية

٥٢٦-٥٦٩ هـ/ ١١٣٢-١١٧٤ م

لعب أتابك «عماد الدين زنكي» (٥٢١-٥٤١ هـ/ ١١٢٦-١١٤٦ م)، ومن بعده ولده «نور الدين محمود» (٥٤١-٥٦٩ هـ/ ١١٤٦-١١٧٤ م)، دورا كبيرا فى نشأة الدولة الأيوبية فى مصر والشام، ويرجع ذلك إلى العلاقة الوطيدة التى قامت بينهما وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه لفترة امتدت لأكثر من أربعين عاما، وشملت هذه العلاقة أيضا أولاد نجم الدين أيوب، وفى مقدمتهم يوسف الملقب بعد ذلك بصلاح الدين، فنشأت بذلك علاقة وطيدة بينهما وبين معظم أفراد الأسرة الأيوبية، ووفرت لهم هذه العلاقة ولاية العديد من المناصب المهمة فى الدولة الأتابكية فى الشام ومصر.

فتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى مصر للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله، وبعد وفاته فى عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م خلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين، ومنذ ذلك الوقت ثبتت أقدام صلاح الدين فى حكم مصر، وتغيرت فقط مسميات حكمه لها من وزير للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله إلى نائب عن نور الدين محمود فى حكمها بعد سقوط الخلافة الفاطمية ودخول مصر ضمن سلطة الدولة الأتابكية، ولذلك بعد وفاة نور الدين محمود فى عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م، استقل صلاح الدين بملك مصر، وأسس بها الدولة الأيوبية ثم اتسعت بعد ذلك دولته، وضمت العديد من بلاد الدولة الأتابكية فى الشام.

ومن هنا بات واضحا الدور المهم الذى لعبته الدولة الأتابكية فى نشأة الدولة الأيوبية ولهذا أولى ابن أبى طى هذه العلاقة اهتماما كبيرا فى كتابه الذى أرخ فيه لسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبى، وعنى فيه بتتبع نشأة وتطور هذه العلاقة، وتناول مراحل الضعف

والقوة التى مرت بها، كمقدمة قبل تناوله تاريخ السلطان صلاح الدين بعد استقلاله بحكم مصر، ولذلك جاءت كتاباته ذات طابع خاص، وانفرد فيها بإبراز العديد من النقاط عن كثير من المؤرخين، ولهذا رأينا أن نخصص فصلا مستقلا نعرض فيه رؤية ابن أبى طى عن هذه العلاقة مقارنة بما ذكره كثير من المؤرخين.

وقد اعتمدنا فى جمع مادة كتابات ابن أبى طى فى هذا الفصل، فضلا عن كتابه السيرة الصلاحية، على كتابه «**معادن الذهب فى تواريخ الملوك وذوى الرتب**»، حيث أورد منه ابن الفرات فى أجزائه المخطوطة والمطبوعة أحداثا مهمة، تتعلق بعلاقات نجم الدين أيوب مع «عزيز الدين عم العماد الكاتب الأصفهاني»، وعماد الدين زنكى، والسلطان السلجوقى «مسعود بن محمد»، وأيضا العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين، كما أفادتنا كتابات «ابن كثير» التى أوردها عن ابن أبى طى عن العلاقة أيضا بين صلاح الدين والخلافة العباسية ونور الدين محمود، كما أمدنا كل من: ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان، والنويرى فى كتابه نهاية الأرب، ببعض المعلومات التى أوردها ابن أبى طى عن مكان مولد نجم الدين أيوب ونشأته.

وكانت العلاقة بين الدولة الأتابكية والأسرة الأيوبية، قد بدأت بين عماد الدين زنكى و نجم الدين أيوب، وقبل الخوض فى تفاصيل هذه العلاقة، نوضح نبذة عن تاريخ الأسرة الأيوبية قبل نشاة علاقتها مع الدولة الأتابكية.

تاريخ الأسرة الأيوبية قبل علاقتها بالدولة الأتابكية:

لم يحظى نجم الدين أيوب - عميد الأسرة الأيوبية - باهتمام كثير من المؤرخين، إلا بعد أن أصبح ولده صلاح الدين ذو شأن كبير، وأسس الدولة الأيوبية فى مصر و الشام، وعندئذ اهتموا بالبحث حول أصل أسرته، وقادهم ذلك للبحث عن أصل ونشأة والده، ولكن تعذرت أقلامهم أمام قلة المعلومات التى توفرت لديهم عن تلك الفترة المبكرة من حياة نجم الدين أيوب، وأصبح لذلك هذا الموضوع مجال بحث كثير من المؤرخين ومن

بينهم ابن أبى طى، ونشأ بينهم جدل كبير حول بعض الأحداث الهامة فى حياته، ومنها: إثبات نسبه، وكيفية انتقاله مع أسرته إلى العراق، وولايته قلعة «تكريت» التى بدأت فيها علاقته مع عماد الدين زنكى، كما سكتت أقلام كثير من المؤرخين حول بعض التواريخ الهامة فى حياته، ومن ذلك تاريخ مولده وتاريخ انتقاله إلى العراق وولايته قلعة تكريت، وخروجه منها.

نسب نجم الدين أيوب:

اختلف كثير من المؤرخين إلى عدة آراء لإثبات نسب نجم الدين أيوب، وقد بحث ابن أبى طى ثلاثة من هذه الآراء، واعتمد فى بحثه على عدة مصادر منها:

رأى والده «أبو طى النجار»، و آراء بعض أحفاد نجم الدين أيوب كما شمل بحثه عددا كبيرا من آل أيوب، ثم ختم روايته بما أخبره به السلطان الملك الناصر عن هذا الموضوع.

وقد استوقفنا هذا المصدر الأخير لأنه يبدو للوهلة الأولى أنه كان يقصد به السلطان صلاح الدين، ولكننا نستبعد هذا الرأى نظرا لصغر عمر ابن أبى طى عند وفاة السلطان صلاح الدين فى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م حيث كان يبلغ الرابعة عشر من عمره، ولهذا فمن المؤكد أنه كان يقصد أحد أحفاد صلاح الدين أو أحفاد أخيه الملك العادل الذين تلقبوا بالملك الناصر[1]، ومن المرجح أنه كان يقصد «الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر بن صلاح الدين» الذى تولى الحكم فى حلب فى ربيع الأول عام ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦م[2] حتى صفر عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م، وكان يلقب أيضا

---

(١) ومنهم : « الملك الناصر صلاح الدين بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ، توفي في عام ٦٥٦ هـ . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٩٦) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

بالسلطان، وبصاحب الشام، وقتله التتار فى جمادى الأولى عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م[١]

وهذا الرأى - إن صح - سوف يكون له دلالة كبيرة فى تحديد تاريخ تقريبى لوفاة ابن أبى طى، خاصة أنه كان قد ذكر بعد عبارة السلطان الملك الناصر كلمة: رحمه الله، وهذا يعنى أنه توفى قبل ابن أبى طى، ويقف تحديد تاريخ وفاة ابن أبى طى بدقة حجر عثرة فى تأكيد هذا الرأى، إلا أنه إذا أخذنا بالرواية التى كنا قد ذكرناها عند دراستنا لتاريخ وفاته ورجحنا من خلالها أنه توفى بعد عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م، يكون هذا الرأى هو الأقرب للصواب، ويصبح دليلا جديدا يؤكد وفاته بعد هذا التاريخ.

على أية حال من الآراء التى أوردها ابن أبى طى عن نسب نجم الدين أيوب كان رأيا ذكره له والده أبو طى النجار عن أحد أحفاده نجم الدين أيوب، وهو «تقى الدين عمر ابن شاهنشاه». فقال: «وحدثنى أبى رحمه الله قال: كان «تقى الدين عمر» يزيد فيقول: شاذى بن مروان[٢]. وقد أيد «ابن خلكان» هذا النسب بقوله: «قال لى بعض كبراء بيتهم: هو شاذى بن مروان»[٣] وذكر هذا الرأى أيضا بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى[٤].

ثم عرض ابن أبى طى رأيا آخر لأجد أحفاد نجم الدين أيوب، وهو: «أبو الفداء إسماعيل ابن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب»[٥]، وفيه أرجع نسب جده إلى آخر الخلفاء الأمويين، وقد أنكر ابن أبى طى هذا النسب قائلا: «وقد ادعى ابن سيف الإسلام لما ملك

---

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ٢١١ - ٢١٢.

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٤ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٠ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٥١ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٣ .

(٥) هو أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي : تولي اليمن بعد وفاة والده في عام٥٩٣هـ / ١١٩٧ م، وادعي أنه قرشي من بني أمية ، وقيل إنه عزم علي إعادة الخلافة من بني هاشم إلي بني أمية، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله ، المعز لدين الله ، وقتل في رجب عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢، ص ٥٣٥؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ٥٢٤) .

اليمن أنهم من بنى «مروان بن محمد الجعدى المعروف بالحمار»[١]

يعنى آخر خلفاء بنى أمية، وقد نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب بأن هذا كذب»[٢]. ونفى هذا الرأى أيضا بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى ودعموا آراءهم بأقوال من البيت الأيوبى[٣].

ثم أنهى ابن أبى طى بحثه عن نسب نجم الدين أيوب بأنه هو: «نجم الدين أيوب ابن شاذي»، (وأنه) «لا يُعرف فى نسبه أكثر من والده شاذي»[٤]، وقد أكد هذا الرأى مرة أخرى تأكيدا قاطعا بقوله:«أن جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شاذي[٥]، وكذلك أخبرنى السلطان الملك الناصر رحمه الله»[٦].

وقد أكد هذا الرأى أيضا بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبى طى من خلال اطلاعهم على بعض الأوقاف. فقال«أبو شامة»عقب ذكره رواية ابن أبى طى: «ودليل صحة ذلك أنى وقفت على كتاب وقف الرباط النجمى بدمشق، و لم يزد فيه على نجم الدين أبى سعيد أيوب بن شاذى العادلي»[٧]، كما قال أيضا «ابن خلكان»: «وقفت على كتب كثيرة بأوقاف و أملاك باسم شيركوه و أيوب، فلم أر فيها سوى شيركوه بن شاذى، وأيوب بن شاذى لا

---

(١) مروان بن محمد : كان آخر خلفاء الدولة الأموية (٤١ ـ ١٣٢ هـ/ ٦٦١ ـ ٧٥٠ م) ، ولقب « بالحمار » لشجاعته في الحرب ، و« بالجعدي » نسبة إلي مؤدبه « الجعد بن درهم » ، وولد في عام ٧٢ هـ/ ٦٩١ م ، وبويع له بالخلافة في صفر عام ١٢٧ هـ/ ٧٤٤ م ، وقتل في عام ١٣٢ هـ/ ٤٩ ـ ٧٥٠ م . (الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٤ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤١ ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٤ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٢ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٤ .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٤ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٣.

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥.

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٣٥ .

غير»[١]، كما أيد هذا الرأى بعض المؤرخين المعاصرين لابن أبى طى[٢]، واللاحقين به[٣].

وهناك أيضا بعض الآراء الأخرى التى قيلت حول نسب نجم الدين أيوب، فمنها

من أرجع نسبه إلى «نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان بن يعقوب»[٤]، ومنها من أرجع نسبه إلى أبعد من ذلك حتى آدم عليه السلام[٥].

مولد نجم الدين أيوب:

اهتم كثير من المؤرخين بالبحث عن مسقط رأس نجم الدين أيوب، باعتباره أصل نشأة البيت الأيوبى، وقد تمكن معظمهم من تحديد البلدة التى ولد بها، وهى بلدة «دَوين»[٦]، وحدد فريق منهم موقعها بدقة، وذكر أنها تقع فى منطقة «أذربيجان»[٧]،

---

(١) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠١؛ ابن شداد: النوادر، ص ٦.

(٣) أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٤٧؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٥٤؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٢؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ١٣٦.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١. ص ٣؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٢٧٢؛ المقريزي: المقفي، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٥) ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٥-٦؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤١؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٥٥.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١؛ ابن شداد: المصدر السابق ص ٦؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٧؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٥٤؛ ابن الوردي: تاريخه، ج ٢، ص ٧٤؛ المقريزي: المقفي، ج ٢، ص ٣٧٨؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٤؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٧) أذَربيجَان: من أقاليم إيران الشمالية، من أشهر مدنها «تبريز». (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ٣٥٢، ٣٥٦).

وتحديدا فى اخر حدودها[١] الشمالية[٢]. كما اهتم بعض المؤرخين بذكر أهم البلاد التى تقع بالقرب من «دَوِين»: واتفقوا على أنها تقع بالقرب من إقليم«أرمينية[٣]»[٤]، ولكنهم اختلفوا فى تحديد أكثر المناطق قربا إليها، فقيل أنها تقع بالقرب من «تَفْلِيس»، الواقعة فى «أرمينية الصغرى»[٥]، والتى كان يقطنها قوم من النصارى عرفوا «بالكُرج»[٦]، فصارت تعرف «ببلاد الكرج»[٧]. وقيل أيضا أنها تقع بالقرب من «خلاط أو أخلاط»[٨]، الواقعة فى «أرمينية الكبرى»[٩]، وأخيرا قيل أنها تقع على مقربة من «أران »[١٠].

وقد بحث ابن أبى طى أيضا عن المكان الذى ولد به نجم الدين أيوب، ولكنه لم يتمكن من تحديد مكان بعينه، وأورد فى ذلك رأيين:

ذكر فى الرأى الأول أنه ولد ببلد «شبختان»، وهذا المكان لم نتمكن من تحديد موقعه فى كتب الجغرافيا. فقال: «وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد «شبختان»، كذا حكاه «مؤيد الدين ابن منقذ». ثم قال فى الرأى الثانى: «وحدثنى جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٣٩ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ٢٧٢ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٥٦ ؛ النعيمي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٣) أرمينية : من أقاليم إيران الشمالية . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٥٢-٣٥٣).

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٧٦ .

(٥) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ج ٢ ، ص ٤٩١ .

(٦) استولي الكرج علي تفليس في عام ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م (يا قوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٦؛ العظيمي : تاريخ العظيمي ، ص ٣٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٣٦٢).

(٧) ابن خلكان: المصدر السابق ، ج ٧، ص ١٣٩ ؛ الذهبي : سير أعلام ، ج ١٥ ، ص٢٧٢ .

(٨) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧ .

(٩) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(١٠) أران : من أقاليم إيران الشمالية (القلقشندي : صبح الأعشى ،ج٤، ص ٣٥٢-٣٦٠) ، ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٣٩ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

«جور»[١]. وهذا الجبل وصفه «ياقوت الحموي» بأنه منطقة كبيرة متصلة «بديار بكر»[٢]، من نواحي «أرمينية»[٣].

و قد نقد «ابن خلكان» رواية ابن أبي طي، وعارض ما أورده قائلا : «ولم يوافقه على ذلك أحد، بل انفرد به، وإنما نبهت عليه كيلا يقف عليه من لا يعرف هذا الفن فيظن أنه صواب، وليس الأمر كذلك»[٤]. وفى رأينا لم يكن «ابن خلكان» محقا فى نقده لرواية ابن أبى طى، فعلى الرغم من أن ابن أبى طى لم يحدد اسم البلد بدقة، إلا أنه لم يبعد كثيرا فى الرأى الثانى الذى أورده عن المنطقة التى ذكر كثير من المؤرخين أن «دوين» تقع بالقرب منها، وهى منطقة أرمينية. نشأة نجم الدين أيوب:

كانت هذه الفترة المبكرة من حياة نجم الدين أيوب من الفترات التى لم يذكرها كثير من المؤرخين، لندرة ما توفر لديهم من معلومات، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن والده شاذى كان من أعيان بلدة دوين[٥]، وهذا يعكس لنا طبيعة المناخ الذى نشأ فيه نجم الدين، ويوضح أن شاذى وفر لأسرته حياة كريمة، ونشأ أولاده فى رغد من العيش وساعده ذلك على إرسال ولده أيوب كما يقول ابن أبي طى إلى الموصل: «فربى فى بلد الموصل[٦]، و نشأ شجاعا باسلا»[٧].

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢، ص ٥٣٥ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق، ج ١ ، ص ٢٥٩ .
(٢) ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة ، حدها ما غرب من نهر دجلة إلي بلاد الجبل المطل علي بلدة « نصيبين » إلي نهر دجلة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٤) .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .
(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ٢٥٩ .
(٥) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ؛ النعيمي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .
(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٥ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٩.
(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٥ .

ولاية نجم الدين أيوب تكريت:

انتقل نجم الدين أيوب مع أسرته من مسقط رأسه فى «دوين» إلى العراق، واستقر هناك فى بلدة « تكْريت»، حيث عمل واليا عليها، وتحديدا فى قلعتها المطلة على نهر دجلة بين بغداد و الموصل[1]. وتعد ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت من المراحل المهمة التى تسجل فى تاريخ الأسرة الأيوبية، حيث نشأت فى أثناء ولايته العلاقة بينه وبين الدولة الأتابكية فى عهد «عماد الدين زنكي» فى عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، وكان لهذه العلاقة أبلغ الأثر على مستقبل الأسرة الأيوبية، حيث غرس نجم الدين أيوب فى ذلك العام بذور المودة بينه وبين عماد الدين زنكى، وأخذ يجنى ثمار هذه البذور عاما بعد عام، وازدهرت أحوال الأسرة الأيوبية فى كنف الدولة الأتابكية.

ولهذا اهتم ابن أبى طى بهذه المرحلة، وألقت كتاباته الضوء حول بعض النقاط المهمة التى توضح تاريخ الأسرة الأيوبية فى تكريت، فعرض لولاية نجم الدين أيوب تكريت، وأوضح السياسة التى اتبعها فى حكمها، كما تناول نشأة العلاقة بين أتابك عماد الدين زنكى ونجم الدين أيوب، ثم ختم روايته بانتهاء ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت، موضحا الأسباب التى دعت إلى ذلك.

تاريخ ولاية نجم الدين أيوب تكريت:

كان نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه قد انتقلا - كما ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين - من بلدتهم «دوين» إلى العراق، و عملا هناك مع «مجاهد الدين بهروز الخادم»[2] متولى «الشحنة»[1] فى بغداد، وبعد فترة من عملهما معه وجد بهروز الخادم فى

(١) ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٠٠ .

(٢) هو بهروز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض ، الملقب مجاهد الدين : كان واليا على العراق لمدة تزيد عن ثلاثين سنة ، وتولي قيادة الشرطة بها عدة مرات ، في أعوام ٥٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٣٢ هـ ، وتولي أيضا بلدة الحِلة في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ؛ كما كان لبهروز جهودا

نجم الدين أيوب من الصفات الحميدة ما شجعه على إسناد ولاية تكريت إليه، فتولاها نجم الدين أيوب نيابة عنه[٢].

أما بالنسبة لتاريخ العام أو الفترة التاريخية التى بدأت خلالها ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت، فلم يتمكن كثير من المؤرخين من تحديدها، ووجدنا بعض الآراء التى اجتهدت فى تحديد هذه الفترة، فذكر المؤرخ «ابن خلكان» أن حكم الأسرة الأيوبية فى تكريت بدأ فى عهد السلطان السلجوقى «محمد بن ملكشاه» (٤٩٢ ـ ٥١١ هـ/ ١٠٩٩ ـ ١١١٨ م) بولاية شاذى والد نجم الدين أيوب تكريت من قبل بهروز الخادم، حيث كان شاذى صديقا له بحكم نشأتهم معا فى دوين، وبعد وفاة شاذى خلفه نجم الدين أيوب فى حكم تكريت[٣].

واضحة في فنون العمارة في العراق ، حيث قام بعمارة جامع السلطان محمد بن ملكشاه ، وبناء دار السلطنة له ، كما بني رباطا للصوفية ، و قام بحفر نهر دجيل ، وبني قرية المجاهدية في عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م ؛ وقد أضاف ابن أبي طي في روايته عنه قائلا : « كان بهروز أميرا ينفذ أمره في جميع العراق إلي البصرة إلي الموصل إلي أصفهان ، وكانت خيله خمسة آلاف فارس » . وتوفي بهروز في عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ ـ ٤٦ م . (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ج ١٠ ، ص ٥ ، ١٢ ، ٧٢، ٩٥ ، ١١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٥٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٦٣ ، ج ٩ ، ص ١١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٦ (رواية ابن أبي طي).

(١) الشحنة : هي وظيفة الغرض منها حفظ الأمن ، وكانت في ذلك الوقت تُعين من قبل السلاطين السلاجقة في العراق ، ويهدفوا منها أيضا المحافظة علي أمن العراق من الخليفة ، خاصة في فترة غيابهم عن العراق . (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٥٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٢٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٥٦) .

(٢) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ . وانظر أيضا : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤١ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤ ؛ ابن لفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٦ . وانظر أيضا : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص ٢٧٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢ ؛ النعيمي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

كما أشار «النويري» إلى أن وصول نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه إلى العراق كان بعد انتهاء عهد السلطان محمد بن ملكشاه، فى فترة خلافة الخليفة العباسى المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ/ ١١١٨ ـ ١١٣٥ م)[١].

وبهذا أكد كثير من المؤرخين ولاية نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم ولكن ظل تاريخ العام أو الفترة التى بدأت فيها ولايته غير واضحة.

وتبقى لدينا رأى ابن أبى طى فى هذا الموضوع، وسنرى مدى اتفاقه أو اختلافه مع هؤلاء المؤرخين.

تناول ابن أبى طى فى روايته دراسة أحوال نجم الدين أيوب منذ وصوله إلى العراق وأوضح تطور أحواله من خلال عمله فى خدمة سلاطين دولة السلاجقة فى العراق، فعرض ابن أبى طى فى القسم الأول من روايته تطور أحواله نجم الدين أيوب فى عهد السلطان «محمد بن ملكشاه» فقال: «خدم السلطان محمد ابن ملكشاه، فرأى منه أمانة وعقلا و سدادا و شهامة، فولاه قلعة تكريت»[٢].

ثم انتقل ابن أبى طى فى القسم الثانى من روايته إلى توضيح تطور أحوال نجم الدين أيوب فى عهد السلطان السلجوقى «مسعود بن محمد بن ملكشاه» (٥٢٧ ـ ٥٤٧هـ/ ٣٢، ١١٣٣ ـ ١١٥٢ م) فقال: «فلما ولى السلطان «مسعود» المُلك أقطع قلعة تكريت مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق... فأقر الأمير نجم الدين فى ولاية تكريت، و أضاف إليه النظر فى جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود[٣]»[٤].

---

(١) المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٥.

(٣) أورد كل من النويري و ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي في هذا الجزء. انظر: (النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٥٤؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٢).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦.

وقد أورد ابن أبي طي نفس هذا الموضوع بمزيد من التفصيل في رواية أخرى له ذكرها ضمن أحداث عام ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م ونقلها عنه «ابن الفرات»،فقال: «وولى السلطان مسعود العراق لمجاهد الدين بهروز وخرج إليه، وفوض مجاهد الدين بهروز أمر تكريت والقلعة إلى الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى واعتمد عليه فى جميع أموره و قرر أمره من جهة السلطان مسعود وأنفذت له الخلع من العراق، وأنفذت أيضا لأخيه أسد الدين شيركوه خلعة من السلطان وكتاب الأدوية المفردة وغير ذلك»[1].

ومن خلال مقارنة رواية ابن أبي طي مع كثير من المؤرخين، لاحظنا اتفاقه فى القسم الأول من روايته مع ما ذكره كثير من المؤرخين بشأن انتقال نجم الدين أيوب إلى العراق وعمله به قبل ولايته تكريت، فاتفق ابن خلكان معه فى تحديد عهد السلطان السلجوقى «محمد بن ملكشاه» كبداية لظهور الأسرة الأيوبية ،ولكنه اختلف مع ابن أبي طي فى تحديد الاسم الذى عاصر السلطان محمد بن ملكشاه أثناء ولايته فى تكريت، فذكر ابن أبى طى أنه كان نجم الدين أيوب، بينما ذكر ابن خلكان أنه كان والده شاذى كما سبق أن أوضحنا. وانفرد ابن أبي طي بما ذكره عن أن ولاية نجم الدين أيوب تكريت بدأت مباشرة من قبل السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه.

أما بالنسبة لروايته فى القسم الثانى فقد لاحظنا أنه لم يكن واضحا و دقيقا فى تحديد فترة ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت، فبعد أن أوضح فى القسم الأول من روايته بداية ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٢ ـ ٥١١ هـ/ ١٠٩٩ ـ ١١١٨ م)، نجده ينتقل فى القسم الثانى إلى توضيح ولايته لها من قبل بهروز الخادم فى عهد السلطان مسعود بن محمد (٥٢٧ ـ ٥٤٧ هـ/ ٣٢، ١١٣٣ـ ١١٥٢ م)،

وبين هذين القسمين مدة ستة عشر عاما تقريبا لم يوضح فيها أحوال نجم الدين أيوب، ثم ألمح بعد ذلك أثناء تناوله ولاية نجم الدين أيوب تكريت من قبل بهروز الخادم

(١) المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٤ ، ورقة ٢٠ (مخطوط) .

إلى استمرار ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت قبل عهد السلطان مسعود، حيث ذكر أن بهروز الخادم أقر نجم الدين أيوب في، ولاية تكريت وفى هذا إشارة إلى أنه وافق على استمراره فى حكم تكريت.

ولم يكن ابن أبى طى دقيقا عندما حدد عهد السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٧ ـ ٥٤٧ هـ/ ٣٢/ ١١٣٣ـ ١١٥٢ م) بداية لتاريخ ولاية نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم، ذلك لأنه على الرغم من أن كثيرا من المؤرخين لم يحددوا تاريخ العام أو الفترة التى تولى فيها نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم إلا أن هناك بعض الأحداث التاريخية التى أكدت ولاية نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم قبل حكم السلطان مسعود بن محمد العراق فى عام ٥٢٧ هـ/ ١١٣٣م.

فذكر المؤرخ «العماد الأصفهاني» أن عمه «أبا نصر أحمد الملقب بعزيز الدين» كان قد ألقى القبض عليه فى بداية عام ٥٢٥ هـ/ ٣٠ ـ ١١٣١ م، وأودع لدى بهروز الخادم فى قلعة تكريت، وأشاد العماد بنجم الدين أيوب أثناء ولايته فى تكريت فى ذلك الوقت، حيث رفض القيام بقتل عمه، وقام بذلك بهروز الخادم[١]، كما أكد ذلك أيضا بعض المؤرخين فى عام ٥٢٦ هـ/ ١١٣٢ م، أثناء تناولهم لأحداث هزيمة عماد الدين زنكى ولجوئه إلى نجم الدين أيوب فى تكريت، وتقديم نجم الدين كل العون و المساعدة إليه، حيث أوضحوا أن بهروز الخادم عاتب نجم الدين أيوب على ما قدمه من مساعدات لعماد الدين زنكى[٢]، ومن الملاحظ أن ابن أبى طى أورد أيضا هاتين الحادثتين فى كتاباته[٣]، إلا أنه لم يحدد تاريخ حدوثهما، وسوف نتناول هذه الأحداث بالتفصيل فى الصفحات القادمة.

كذلك لم يكن ابن أبى طى دقيقا عندما حدد تاريخ إقطاع بهروز الخادم تكريت فى

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار البنداري ، ص ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٥

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ؛ المقريزي : المقفي ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧ (رواية ابن أبي طي) .

عهد السلطان مسعود بن محمد، ذلك لأن تكريت كانت إقطاعا لبهروز الخادم قبل ولاية السلطان مسعود فى عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م كما أوضحنا فى الفقرة السابقة، وقد وقع فى هذا الخطأ أيضا بعض المؤرخين[١]، ويرجع هذا إلى عدم توفر معلومات مؤكدة

لدى كثير من المؤرخين عن تاريخ إقطاع بهروز الخادم تكريت، ولهذا رأينا أن البحث فى تاريخ ولاية بهروز الخادم تكريت يفيدنا فى تقريب آراء كثير من المؤرخين حول بداية حكم نجم الدين أيوب فى تكريت نيابة عن بهروز الخادم.

ومن خلال دراستنا لتاريخ بهروز الخادم تبين لنا أن تكريت كانت إقطاعا له قبل عهد السلطان مسعود بفترة طويلة، وظهر ذلك من خلال كتابات «ابن الأثير» حيث أشار فى أحداث عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م إلى قيام بهروز الخادم بمراسلة الخليفة العباسى المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩هـ / ١١١٨ - ١١٣٤ م) من تكريت ليحذره من بعض الأخطار الخارجية التى فى طريقها إلى غزو العراق[٢]. كما وردت إشارة أخرى فى كتابات ابن الأثير تؤكد ولاية بهروز الخادم تكريت فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٢ - ٥١١ هـ / ١٠٩٩ - ١١١٨ م) حيث أشار فى بداية أحداث عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه فى ذى الحجة عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م، إلى عزل بهروز من شحنة، بغداد وأوضح أنه اتجه بعد عزله إلى تكريت، التى «كانت له» على حد قوله[٣].

وفى هذا تأكيد بأن تكريت كانت تابعة لبهروز الخادم على الأقل منذ عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م، و قبل هذا العام كانت آخر إشارة وصلتنا عن ولاة تكريت فى صفر عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م، حيث تولاها الأمير «سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد»، لمدة عام حتى قتل فى رجب عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م[٤].

---

(١) ابن الفرات: المصدر السابق ،ج ٤، ق ١، ص ٥١؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ،ج ٦، ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣١٧ . وانظر أيضا : النويري : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٨٠ . وانظر أيضا : النويري : المصدر السابق ، ج ٢٧ ، ص ٩ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، ٢٤٥ .

وبهذا صار لدينا مدة تقريبية للفترة التى بدأت خلالها ولاية بهروز الخادم تكريت، وتبدأ هذه الفترة منذ عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م حتى عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م، وهناك عدة شواهد تشير إلى إقطاع بهروز الخادم تكريت بعد قتل الأمير صدقة ابن مزيد، وذلك لأنه فى الوقت الذى صادر فيه السلطان «محمد بن ملكشاه» أملاك «صدقة ابن مزيد» وصارت تحت تصرف نوابه منذ ذلك الوقت حتى وفاته فى عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م[١]، بدأت علاقته ببهروز الخادم تزداد يوما بعد يوم فعهد إليه السلطان محمد بولاية شحنة بغداد فى عام ٥٠٢ هـ/ ٨ ،١١٠٩م[٢]،كما فوض إليه فى نفس العام أيضا عمارة الجامع

الذى يحمل اسم السلطان محمد، وبناء دار السلطنة، وأنهى بناءها بعد سبع سنوات فى عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م[٣] كما تولى الشحنة مرة أخرى عام ٥٠٧ هـ/ ١٣ - ١١١٤ م، وأثبت بهروز الخادم فى ذلك كله كفاءة كبيرة، وحظى بمكانة كبيرة لدى السلطان محمد، حسده عليها كثير من الأمراء، وكان هذا سببا لعزله من شحنة بغداد بعد وفاة السلطان محمد[٤].

و نستخلص من خلال كل ما عرضناه من أراء المؤرخين، ورواية ابن أبى طى، وأيضا من خلال ما ظهر لنا عن الفترة التى أقطع فيها بهروز الخادم تكريت، أن الأسرة الأيوبية تولت الحكم فى تكريت كما أجمع معظم المؤرخين نيابة عن «بهروز الخادم»، وأن تاريخ ولايتهم فيها بدأت كما ذكر «ابن أبى طي» و«ابن خلكان» فى عهد السلطان السلجوقى «محمد بن ملكشاه» (٤٩٢ - ٥١١ هـ / ١٠٩٩ - ١١١٨ م)، وتحديدا فى خلال الفترة ٥٠١ - ٥١١ هـ / ١١٠٨ - ١١١٨ م، وهى الفترة التى نرجح أن يكون أقطع خلالها بهروز الخادم تكريت.

---

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ١١٥ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٥٧ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ،ج ٩، ص ١٥٨، ١٧٥، ١٨٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٥٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٨٠ .

أما بالنسبة لولاية الأسرة الأيوبية فى تكريت، فالشائع لدى كثير من المؤرخين أن نجم الدين أيوب هو الذي تولاها، وقد أشار ابن خلكان - كما أوضحنا - إلى ولاية شاذى قبل ولده نجم الدين أيوب، وإن كنا لم نجد ما يؤكد رواية ابن خلكان، إلا أننا نميل إلى الأخذ برأيه، نظرا لطول الفترة التى من المفترض أن يكون تولاها نجم الدين أيوب بمفرده فى تكريت، والتى تقدر بما يزيد عن العشرين عاما، وذلك إذا افترضنا أنه تولاها فقط منذ عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م أى قبل وفاة السلطان محمد بن ملكشاه مباشرة، حتى خروجه منها فى عام ٥٣٢ هـ / ٢٧ ـ ١١٢٨ م كما سنوضح بعد قليل.

سياسة نجم الدين أيوب فى تكريت:

اهتم ابن أبى طى فى روايته عن ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت، بتوضيح بعض ملامح السياسة التى اتبعها نجم الدين أيوب خلال فترة حكمه فيها، وقد لاحظنا من خلال قراءتنافى كثير من المصادر الإسلامية، أن ابن أبى طى انفرد بينهم بتخصيص جزء من روايته عن ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت للكتابة فى هذا الموضوع، وقد أشار ابن أبى طى إلى أحد مصادره التى استقى منها بعض معلوماته عن سياسة نجم الدين أيوب فى تكريت، وهو كتاب «تاريخ دولة آل سلجوق» للمؤرخ «العماد الأصفهاني»، وقد أفاده هذا الكتاب فى الاستشهاد بإحدى الحوادث التى تعكس بعض ملامح سياسية نجم

الدين أيوب فى تكريت، ومن الملاحظ أن هذه الحادثة كانت من الحوادث المشهورة، وذكرها كثير من المؤرخين ، ولكنها لم تلفت انتباههم للاستدلال بها على سياسة نجم الدين أيوب فى تكريت.

تناول ابن أبى طى فى روايته عن هذا الموضوع جانبا من سياسة نجم الدين أيوب الداخلية فى تكريت، وعرض من خلالها لجهوده فى حفظ الأمن، و فى العمل على ازدهار تكريت دينيا و علميا. كما أوضح بعض ملامح العلاقة بين نجم الدين أيوب وبهروز الخادم والى تكريت، من خلال عرضه لبعض الأحداث التى وقعت فى تكريت، ومواقف

نجم الدين أيوب تجاه تلك الأحداث، و أخيرا تناول أثر السياسة التى اتبعها نجم الدين أيوب على علاقته بأهل تكريت.

أشار ابن أبى طى فى بداية روايته عن سياسة نجم الدين أيوب الداخلية فى تكريت إلى جهوده فى حفظ الأمن بها، ولهذا أمن معه «بهروز الخادم» على أمواله وذخائره، فقال: «فقام فى ولايتها أحسن قيام وضَبطَها أكْرم ضبط، وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العبث.. وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل ذلك منوطا بالأمير نجم الدين ومَعذوقا بهمته». كذلك قام نجم الدين بتشجيع العلماء ورجال الدين، واهتم بالوافدين منهم إلى تكريت، وأجزل لهم العطاء، وحرص أيضا على طلب المتميزين من رجال الدين من خارج تكريت للاستفادة من علمهم هناك قال ابن أبى طى: «وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين فى مدينة إلا أنفذ إليه»[1].

ثم أوضح ابن أبى طى بعض ملامح سياسة نجم الدين أيوب مع والى تكريت بهروز الخادم من خلال عرضه بعض الأحداث التى وقعت فى تكريت، ومواقف نجم الدين أيوب تجاه تلك الأحداث، وظهر من خلالها أنه كان فى بعض الأحيان لا يلتزم بأوامر بهروز الخادم، خاصة إذا تعارضت مع مبادئه فى توخى العدل والإحسان إلى المحتاج، مما يوضح لنا أن مبادئه وسمات شخصيته كانت تنعكس على إدارته فى تكريت، ولهذا ارتبط به أهل تكريت ارتباطا كبيرا، وحزنوا على فراقه كما سنوضح فيما بعد.

وقعت أولى هذه الأحداث فى تكريت ما بين عامى ٥٢٥ ـ ٥٢٧هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٣٣م، وظهر فيها بوضوح رفض نجم الدين أيوب تنفيذ أوامر بهروز الخادم، لتعارضها مع توخيه العدل ورفضه للظلم، وكان بهروز الخادم بوصفه يعمل من قبل

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦ .

السلاطين السلاجقة قد جعل قلعته فى تكريت سجنا لمن يريدون إبعاده [١]، فاستقبل فى أوائل عام ٥٢٥ هـ / ٣٠ ـ ١١٣١م «أبا نصر أحمد الملقب بعزيز الدين»[٢]، وهو عم المؤرخ «العماد الأصفهاني»، فسجنه فى القلعة، وكان قد قُبض عليه لأنه كان يتولى الخزانة فى دولة السلطان السلجوقى «محمود بن محمد بن ملكشاه» (٥١١ ـ ٥٢٥ هـ / ١١١٨ ـ ١١٣١م)، وكان السلطان «سنجر بن ملكشاه»

(٥١٢ ـ ٥٥٢ هـ / ١١١٨ ـ ١١٥٧ م)، قد طلب من ابن أخيه السلطان محمود استعادة بعض الجواهر المودعة لديه بالخزانة، ونظرا لأنه كان لا يريد إعادتها إليه، أشار عليه وزيره «الدركزيني»[٣] بإبعاد عزيز الدين، حتى لا يتمكن السلطان سنجر بن ملكشاه من سماع شهادته فى هذا الموضوع[٤]. ثم تمكن الوزير الدركزينى من تزوير توقيع من

---

(١) وحدث ذلك أيضا في عام ٥٣٢ هـ ، حيث قبض السلطان مسعود بن محمد علي شحنة بغداد « البقش السلاحي » وأرسله إلي بهروز الخادم في تكريت ليقتله ، لكنه أغرق نفسه قبل قتله . (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٧٢ ، ٧٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٦٣)

(٢) هو أبو نصر أحمد بن حامد بن محمد الأصبهاني : ولد بأصبهان في عام ٤٧٢ هـ / ٧٩ ـ ١٠٨٠ م، تولي العديد من المناصب المهمة في دولة السلاجقة ، فعمل نائبا للوزير « كمال الملك السميرمي » ، كما تولى ديوان الاستيفاء في وزارة « شمس الملك بن نظام الملك » ، وبعد مقتل الوزير شمس الملك في عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، عرضَ عليه السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه الوزارة ، فأباها ، ثم استقال من ديوان الاستيفاء وتولي الخزانة للسلطان محمود ، وكان هذا المنصب سببا للقبض عليه كما أوضحنا في المتن (العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ١٣٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩) .

(٣) هو أبو القاسم الأنساباذي الدركزيني الملقب بزين الدين : تولي الوزارة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، وكانت سيرته سيئة ، وعزل من الوزارة لمدة عام ، ثم أعيد إليها ،واستمر فيها حتى بعد وفاة السلطان محمود ، وتولاها لأخيه « طغرل ابن محمد » ، وقتل في عام ٥٢٧ هـ / ٣٢ ـ ١١٣٣ م بعد أربعين يوما من مقتل عزيز الدين (العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٢ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٦) .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٣٣ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

السلطان سنجر يقضي بقتل عزيز الدين، وطلب من بهروز الخادم في عام ٥٢٧ هـ / ٣٢ - ١١٣٣ م[١] تنفيذه، فأرسل إلى نجم الدين أيوب خطابا في هذا المعنى، وكان يحمل بين طياته تهديدا ووعيدا في حالة الرفض، ولكن نجم الدين أيوب لم يعبأ بهذا التهديد، ورفض طلبه، لأنه كان - كما يقول العماد الأصفهاني - رجلا مُسلما فما رأى أن يكون لرجل مسلم مسلما، كما كانت علاقته بعزيز الدين قد توطدت وكذلك أخيه أسد الدين شيركوه، فجاء بهروز الخادم إلى قلعة تكريت لتنفيذ الأمر بقتله، وحاول نجم الدين أيوب منعه، لكنه لم يتمكن وقام بهروز بقتله[٢].

وقد أورد أبو شامة ملخصا لما ذكره ابن أبي طي عن هذا الموضوع، وفيه تناول ابن أبي طي خبر القبض على عزيز الدين، ورفض نجم الدين أيوب تنفيذ الأمر بقتله، وأورد ابن أبي طي فيه - نقلا عن العماد الكاتب الأصفهاني - بعض السمات التي ظهرت في شخصية نجم الدين، والتي انعكست على قراره، فقال: «وقد ذكر العماد الكاتب في «سيرة السلجوقية» الأمير نجم الدين، وقرظه و أثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثره خيره أشياء حسنة ؛ وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزيني، وأمره بقتله، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدركزيني»[٣].

ثم وجدنا رواية أخرى لابن أبي طي عن هذا الموضوع أكثر تفصيلا، أوردها له المؤرخ «ابن الفرات» ضمن أحداث عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م . قال ابن الفرات قال ابن أبي طي ما معناه: «حكي» العماد الكاتب «من دين الأمير «نجم الدين أيوب بن شاذى بن

---

(١) أورد العماد الأصفهاني أن عمه قتل في عام ٥٢٧ هـ / ٣٢ - ١١٣٣ م ، وكان بعض المؤرخين قد ذكروا أنه قتل في عام ٥٢٦ هـ/ ٣١ - ١١٣٢م . (العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٥٦ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ،ج ١٠ ، ص ٢٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٨٨) .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ؛ سنا البرق الشامي ، ص ١٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٦ .

مروان»، والد السلطان صلاح الدين يوسف، و عفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشيا حسنة فى... جليلة فى مقدارها، من ذلك أن الدركزينى الوزير كتب إليه كتابا يعده فيه بالجميل والمنزل الجليل وحمل المال الجم على أن يقتل «عزيز الدين العزيز» الوزير عم العماد الكاتب الأصفهانى، فامتنع من ذلك و أكبره، ورد هذا القول و أنكره... من عظمه، وتضور من ألمه، وأراد العصيان لو وجد إليه سبيلا، وعول على منع العزيز بنفسه لو وصل إلى ذلك، وبلغ من امتناعه أن كاتب مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت وعظم عليه هذا.....، وأغلظ له فى المقال حتى صار امتناع نجم الدين وسيلة لبهروز فى الاحتجاج على الوزير الدركزينى فى المدافعة عن العزيز، ولولا تغير الوزير الدركزينى على بهروز و إخافته له حتى تولى قتل العزيز بنفسه، وأخفى ذلك عن نجم الدين لأنه لو كان علم لتوصل إلى إبطاله و دافع عن..... العزيز»[1].

أما الحادثة الثانية التى ذكرها ابن أبى طى، فقد وقعت أحداثها فى عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، وتناول فيها بداية العلاقة بين نجم الدين أيوب وأتابك عماد الدين زنكى فى تكريت، وانفرد فيها ابن أبى طى ببعض التفاصيل التى تلقى مزيدا من الضوء حول بداية تاريخ العلاقات بين الأسرة الأيوبية والدولة الأتابكية من ناحية، وتعكس من ناحية أخرى بعض ملامح العلاقة بين بهروز الخادم ونجم الدين أيوب، وتوضح أيضا بعض سمات نجم الدين الشخصية وأثرها على سياسته فى حكم تكريت.

بدأ ابن أبى طى روايته عن هذا الموضوع بتوضيح الأسباب التي أدت إلى لجوء عماد الدين زنكى إلى نجم الدين أيوب فى تكريت، واتفق فيها مع ابن الجوزى[2]، وهى

---

(١) المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٣٠-٣١.

(٢) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٥-٢٦. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٣٥-٣٣٦؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦-٥٣٧ (رواية ابن أبي طي)؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧-٤٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤.

تتلخص فى الصراع على سلطنة دولة السلاجقة فى العراق بعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فى شوال عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م، وانقسام المتنازعين على السلطنة إلى فريقين: تزعم الفريق الأول الملك «سلجوق بن محمد بن ملكشاه»، وانضم إليه أتابكه «قراجه الساقي»، وحظى هذا الفريق بتأييد الخليفة العباسى المسترشد بالله ، وتزعم الفريق الثانى الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه، وانضم إليه زنكى.

قال ابن أبى طى: «ثم إن السلطان مسعودا حشد وخرج فى أخذ السلطنة وطمع هو و«أتابك زنكى ابن آق سنقر» فى بغداد وجردا عسكرا ضخما وسارا إلى تكريت طامعين فى بغداد، واتصل هذا الخبر «بقراجه الساقي»، وهو أتابك ابن السلطان مسعود، فجرد ألف فارس للقاء زنكى، ثم أردفهم بعسكر ضخم، فانهزم زنكى وقتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ما كان فى عسكره ، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدة جراحات»[1].

وقد قام نجم الدين أيوب فور وصول عماد الدين زنكى بتقديم المساعدة إليه، وقد ذكر «ابن الأثير» أن هذه المساعدة اقتصرت فقط على إقامة المعابر وتقديم السفن إليه،

لتسهيل عبوره مع قواته نهر دجلة للعودة إلى الموصل[2].

وقد أنفرد ابن أبى طى فى روايته بعض التفاصيل الأخرى التى تلقى مزيدا من الضوء حول المساعدة التى قدمها نجم الدين أيوب إلى عماد الدين زنكى، فألمح فى بداية روايته إلى حرص نجم الدين أيوب على إحاطة مساعدته لعماد الدين زنكى بالكتمان، فقال ابن أبى

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٣٦ ، ج ٩ ، ص ١٠١ . وانظر أيضا : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨ ، ٤٨ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦ ؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ، ج ٦ ، ص ٥١٠ ؛ النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٠٩ ؛ المقريزي : المقفى ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤ .

طي عند وصول زنكي إلى سور تكريت : «وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه «فمتحاه»[١] إلى القلعة بحبال[٢]»[٣] ، وهذا يوضح أنه قصد إدخاله إلى القلعة سرا وأنه لم يفتح له أبوابها، خشية أن يعلم أعوان بهروز الخادم بهذا الأمر، لأنه من المتوقع أن يميل بهروز الخادم بوصفه يعمل من قبل السلاطين السلاجقة إلى الفريق الأول الذى حظى بتأييد الخليفة العباسى.

وقد أكد ابن خلكان ما ألمح إليه ابن أبى طى حيث ذكر أن بهروز الخادم بعد أن علم بما قام به نجم الدين أيوب مع عماد الدين زنكى، أنكر عليه فعله هذا، و قال له: «كيف ظفرت بعدوّنا فأحسنت إليه و أطلقته»[٤].

ثم أنفرد ابن أبى طى المساعدات التى قدمها نجم الدين أيوب إلى زنكى، فقال: «وداوَيا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقربا إليه ؛ فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما. ثم سار إلى الموصل، وأعوزه «الظّهر»، فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظّهر حتى إنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من أمتعته[٥]»[٦].

---

(١) المَتْحُ : وصفه ابن منظور مثل جَذب رشاء الدلو تمد بيد و تأخذ بيد علي رأس البئر . (لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ١٣) .

(٢) اتفق « ابن الفرات » و « المقريزي » مع ابن أبي طي ، وأوردا نفس أسلوبه عند ذكره لموقف نجم الدين أيوب من زنكي ، ورفعه إلي القلعة بالحبال . (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥١ (مطبوع) ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٦) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٣ . وانظر أيضا : ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥١ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ ؛ المقفى ، ج ٢ ، ٣٧٩ .

(٥) اتفق المؤرخ « ابن كثير » مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء ، وذكر نفس أسلوبه فقال : «اجتاز به .. عماد الدين زنكي منهزما ...فآواه وداوى جراحاته ، وأقام عنده مدة خمسة عشر يوما ،ثم ارتحل إلي بلده الموصل» . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٢) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ .

هكذا اتضح لنا من خلال رواية ابن أبى طى كيف طغى الجانب الإنسانى فى شخصية نجم الدين أيوب على قراره بشأن إنقاذ حياة زنكى، وظهر ذلك من خلال حجم المخاطرة التى واجهها، لأنه كان يعلم أن تقديمه المساعدة إليه قد يوقعه فى مشاكل مع بهروز الخادم والى تكريت، ومع ذلك أقدم عليها، وإن كان أحاطها فى البداية بالكتمان إلا أن بهروز الخادم علم بما قام به بعد أن غادر زنكى القلعة، ولهذا لاقى هذا المعروف صدا كبيرا فى نفس عماد الدين زنكى، وكان كما يقول ابن أبى طى: «يرى لأيوب هذه اليد ويعرف له هذه الصّنيعة ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مُقامه بتكريت»[1].

وقد عبر بعض المؤرخين عن أثر هذا المعروف الذى قدمه نجم الدين أيوب على قيام الدولة الأيوبية بعد ذلك بقولهم: «فكان هذا الفعل من نجم الدين سببا للسعادة التى آلت به إلى أن صار ولده ملوك الأرض، فلينظر العاقل إلى ثمرة الجميل و فعل الخير»[2].

و ذكر ابن أبى طى تفاصيل هذه الحادثة فى رواية أخرى أوردها له ابن الفرات فقال: «لما بلغ الأمير قراجا أن الأمير عماد الدين زنكى وصل إلى تكريت وهو قاصد بغداد أرسل ألف فارس جريدة نلقا الأمير عماد الدين زنكى وكانت الحرب، واشتد القتال فانهزم الأمير عماد الدين زنكى، وقتل جماعة من أصحابه وأسر جماعة كثيرة من الأمرا.... ووصل الأمير عماد الدين زنكى أتابك إلى سور تكريت وبه عدة جراحات فمتحه واليها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى وأخوه الأمير أسد الدين شيركوه بالحبال ودخل إلى تكريت وأحسنا خدمته، وكانت هذه الفعلة... لهما عند الأمير زنكى أتابك رآها لهما وأقام زنكى بتكريت خمسة عشر يوما وسار إلى الموصل وخرج إليه أهلها»[3].

من خلال كل ما سبق اتضح لنا كيف غلب الطابع الإنسانى فى شخصية نجم الدين

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٣٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٣٤ .

أيوب على سياسته فى حكم تكريت، وظهر ذلك كما ذكرنا من خلال بعض مواقفه مع بعض الشخصيات من خارج تكريت، ولهذا كان أمرا طبيعيا أن تنعكس سمات شخصيته وتظهر بوضوح على علاقته الداخلية بأهل تكريت، وقد عبر ابن أبى طى عن ذلك بقوله: «وكان نجم الدين عظيما فى أنفس الناس بالدين و الخير وحسن السياسة... وساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم». ثم وصف حال أهل تكريت عندما اضطر نجم الدين أيوب إلى مغادرة القلعة قائلا : «وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه و أظهر البكاء والأسف على مفارقته»[1].

وكان نجم الدين أيوب قد اضطر إلى ترك قلعة تكريت بسبب أخيه أسد الدين شيركوه وقد أجمع على ذلك ابن أبى طى وكثير من المؤرخين، و أوضحوا أن أسد الدين شيركوه كان قد قام بقتل أحد العاملين بالقلعة، فطلب عندئذ بهروز الخادم من نجم الدين أيوب مغادرتها[2]. وقد تناول ابن أبى طى هذا الموضوع بمزيد من التفصيل، كما تناوله أيضا «ابن خلكان»، واختلف معه حول تحديد شخصية المقتول، وفى الظروف التى أدت إلى ذلك. قال ابن أبى طى: «وكان أخوه «شيركوه» معه فى القلعة، وكان شجاعا باسلا، ينزل من القلعة ويصعد إليها فى أسبابه وحاجاته. وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها ، فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوما لبعض شأنه ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة «قوارص»[3]، وكان رجلا نصرانيا، فاتفق فى ذلك اليوم أن النّصرانى صادف أسد الدين صاعدا إلى القلعة فبعث به بكلمة مُمِضّة، فجرد أسد الدين

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٨ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ (رواية ابن أبي طي) ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ ؛ المقريزي : المقفى ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ ؛ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٣) قوارص : مفردها قارصة وهي الكلمة المؤذية (ابن منظور: لسان العرب ، ج ١١ ، ص ١٠٩) .

سيفه وقتل النصرانى وصعد إلى القلعة، وكان مهيبا، فلم يتجاسر أحدٌ على معارضته فى أمر النّصرانى بشئ، وأخذ النصرانى برجله فألقى من القلعة»[١].

ثم أوضح ابن أبى طى موقف بهروز الخادم من هذا الحادث فقال: «و بلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى، وحضر عنده مَنْ خوفه جُرأة أسد الدين و أنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، و أنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب استدراكه ، فكتب إلى نجم الدين يُنكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيّره صُحبة الكتاب ؛ فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال[٢]»[٣].

هكذا أوضح ابن أبى طى أن السبب الرئيسى وراء خروج الأسرة الأيوبية من تكريت كان قتل أسد الدين شيركوه لأحد الكتاب النصارى التابعين لبهروز الخادم، وفى رأينا أن قرار بهروز الخادم بمغادرة الأسرة الأيوبية تكريت كان لعدة أسباب، من ضمنها

استهانة شيركوه بأحد أعوانه وقتله، ونرجح أيضا من أسباب ذلك أن الكاتب الذى قتله شيركوه كان من النصارى، حيث لاحظنا من خلال كتابات ابن أبى طى اهتمام بهروز الخادم بتعيين الكتاب النصارى فى قلعته فى تكريت، ففضلا عن الكاتب الذى قتله شيركوه وردت فى كتاباته إشارة إلى كاتب آخر - وسنذكر المناسبة التى جاء ذكره فيها بعد قليل - ومما يؤكد ذلك وصف المؤرخ المسيحى «ابن العبري» (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) بهروز الخادم بأنه كان محبا للنصارى[٤]، ورواية ابن العبرى ذات أهمية كبيرة نظرا لأنه كان يعمل رئيسا للأساقفة وتنقل فى بلدان العراق ومنها تكريت، واهتم فى كتاباته بتوضيح

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ .

(٢) اتفق المؤرخ « النويري » مع ابن أبي طي في أسباب مغادرة نجم الدين أيوب تكريت ، وأورد ملخصا لروايته بنفس أسلوبه . (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٥) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ - ٥٣٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

وضع المسيحيين فى مختلف لبلدان[١].

وقد تناول أيضا المؤرخ «ابن خلكان» الحادثة التى أدت إلى خروج الأسرة الأيوبية من تكريت، واختلف مع ابن أبى طى فى توضيح الظروف التى أدت إلى تورط أسد الدين شيركوه فى عملية القتل، فذكر أن إحدى النساء كانت قد تعرضت للأذى من قبل «الإسفهسلار» فى القلعة، واشتكت منه إلى أسد الدين شيركوه و نجم الدين أيوب فقام أسد الدين شيركوه لذلك بقتله، وأوضح ابن خلكان أن نجم الدين أيوب لم يرض بما فعله أخيه، فقام باعتقاله، وكتب إلى بهروز الخادم بذلك فجاء رد بهروز الخادم - وأورد ابن خلكان عدة أسطر منه - وفيه طالب الأسرة الأيوبية بالرحيل عن القلعة[٢].

أما بالنسبة لتاريخ مغادرة الأسرة الأيوبية تكريت، فقد اتفق ابن أبى طى و ابن خلكان على أن خروجهم منها كان فى نفس الليلة التى ولد فيها «صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب»[٣]، وحدد ابن أبى طى تاريخ مولد صلاح الدين فى عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ - ١١٣٣ م، فقال: «فى هذه السنة ولد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين بقلعة تكريت وأبوه يوميذ متوليها من قبل الأمير بهروز الخادم»[٤].

واختلف ابن أبى طى بذلك مع ابن شداد الذى حدد تاريخ مولده فى عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ - ١١٣٨ م[٥]. ثم أوضح ابن أبى طى أن ولادة صلاح الدين فى هذه الليلة جعلت

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩، ١٢ (مقدمة الكتاب).

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧. وانظر أيضا: ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٢؛ المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٩ (رواية ابن أبي طي)؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٥؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ١٣٧.

(٤) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٥٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٦. وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٤٣٤.

والده يتشاءم منه، وأكد ذلك أيضا ابن خلكان[١] .

وقد كتب ابن أبى طى عن هذا الموضوع بمزيد من التفاصيل، وانفرد به بين كثير من المؤرخين، واعتمد فيه على رواية «والده» التى اعتمد فيها على آراء العديد من الشخصيات الهامة التى كانت على صلة بنجم الدين أيوب . فقال: «وحدثنى أبى رحمه الله قال: حدثنى «سعد الدولة أبو الميامن المؤلي»، وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب، قال: وحدثنى أيضا بهذه الحكاية «مجد الدين بن داية الملك الصالح» قال: حدثنى «حسام الدين سنقر» غلام الأمير«نجم الدين أبى طالب»، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي»[٢].

ثم أوضح فى روايته أنه بعد ولاية صلاح الدين الوزارة فى مصر، ووصول والده نجم الدين أيوب إليه، اجتمعا فى بداية عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م فى دار الوزارة، وكان حاضرا فى هذا المجلس كبار الأمراء والقضاة فى الدولة، وحضر المجلس أيضا أحد الكتاب النصارى وكان قد خدم مع نجم الدين أيوب فى تكريت، فذكّر نجم الدين أيوب بيوم ولادة ابنه يوم خروجه من تكريت ومدى التشاؤم الذى كان عليه، وحاول عندئذ هذا الكاتب أن يجعل نجم الدين أيوب يستبشر بولادته، وبعد مضى كل هذه السنوات، وبلوغ ولده صلاح الدين أعلى المناصب ذكره الكاتب بهذه القصة.

قال ابن أبى طى: «قال (حسام الدين سنقر) كنت فى صحابه الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكى إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين و إقامة دعوى بنى العباس، فى أول سنة سبع وستين وخمسمائة ؛ واتفق أنى كنت حاضرا وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين فى دار الوزارة وقد

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٩ (نص ابن أبي طي) ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٥ . وانظر أيضا : ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٩٣ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٨ .

قعدا على طُرَاحة واحدة، والمجلس غاصٌ بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح و السرور ما قد أذهل العقول. فبيْنا الناس كذلك إذ تقدم كاتب نصرانى كان فى خدمة الأمير نجم الدين فقبّل الأرض بين يدى السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين وقال له: يا مولاى هذا تأويل مقالتى لك بالأمس حين وُلد هذا السلطان. فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله. ثم أخذ فى حمد الله وشكره والثناء عليه»[1].

ثم قال: «والتفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء، والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة، وذلك أننى رزقت هذا الولد، يعنى السلطان الملك الناصر، أمرنى صاحب قلعة تكريت بالرّحلة عنها بسبب الفعْلة التى كانت من أخى أسد الدين شيركوه رحمه الله وقتله النصرانى ؛ وكنت قد ألفْت القلعة وصارت لى كالوطن، فثقُل على الخروج منها والتّحول عنها إلى غيرها، واغتَمْمت لذلك. وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادته فتشاءمت به وتطيّرت لما جرى على، ولم أفرح به ولم أستبشر. وخرجنا من القلعة وأنا على طِيَرَتى به لا أكاد أذكره ولا أسميه. وكان هذا النصرانى معى كاتبا ؛ فلما رأى ما نزل بى من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى منّى أن آذن له فى الكلام، فأذنت له، فقال لى: يا مولاى قد رأيت ما قد حدث عندك من الطّيَرَة بهذا الصبى وأى شئ له من الذنب، وربما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يُغْنى شيئا ! وهذا الذى جرى عليك قضاء من الله تعالى سبحانه وقدر، ثم ما يُدريك أن هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل القدر. فعطفنى كلامه عليه ؛ وهاهو ذا قد أوقفنى على ما كان قاله. فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه»[2].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٣٩ .

العلاقة بين عماد لدين زنكى و الأسرة الأيوبية:

تناولنا فيما سبق بداية العلاقة بين عماد الدين زنكى ونجم الدين أيوب فى تكريت فى عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، كماأوضحنا أن العلاقة بينهما ظلت قائمة حتى بعد انتقال عماد الدين زنكى إلى الموصل. ولهذا عندما طلب بهروز الخادم من نجم الدين مغادرة قلعة تكريت اجتمع مع أخيه أسد الدين شيركوه، وقررا كما أوضح ابن الأثير الانتقال إلى عماد الدين زنكى فى الموصل، فانتقلت الأسرة الأيوبية إليه فأحسن إليهم، ومنحهم إقطاعات جليلة[١].

وقد أنفرد ابن أبى طى ببعض التفاصيل الأخرى عن علاقة الأسرة الأيوبية بعماد الدين زنكى منذ وصولهم إلى الموصل، فذكر الحفاوة الكبيرة التى قابلهم بها، حيث أعد لهم موكبا لاستقبالهم، ثم منحهم العديد من الأقطاعات، فقال: «ولما اتصل بأتابك زنكى قُدومُهما أفرحه ذلك وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراما عظيما وأقطعهما فى بلد «شهرزور»[٢] إقطاعا سَنيا؛ وقيل إنه أقطع أسد الدين «بالمؤزر[٣]»[٤]».

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١. وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٥؛ المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٣٧٩؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٥٧.

(٢) شَهْرَزُورُ: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، وكان عماد الدين زنكي قد ضمها إلي أملاكه في عام ٥٣٣ هـ / ٣٨ - ١١٣٩ م. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٨٤).

(٣) مُوَزّرٌ: كورة تقع بجزيرة آقور، منها نصيبين الروم الواقعة علي شاطئ الفرات. (المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢١، ص ٢٨٩).

(٤) اتفق ابن الفرات مع ابن أبن أبي طي في ذكر الإقطاع الذي منحه أتابك زنكي لشيركوه. فقال: «فأقطعه المؤزر». (تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ص ٥٢). أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٨.

ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقة بين الأسرة الأيوبية والدولة الأتابكية تزداد ترابطا يوما بعد يوما، وقد أثرت العلاقة التى نشأت بين أسد الدين شيركوه وجمال الدين الأصفهاني» - وزير عماد الدين زنكى - تأثيرا قويا على العلاقة بين الأسرة الأيوبية وعماد الدين زنكى، و قد أنفرد ابن أبى طى بتفاصيل هذا الموضوع قائلا : «وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره فى حياته وبعد وفاته[1]. وتجرد جمال الدين فى أمر أسد الدين وأمْر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك زنكى وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة[2]، وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج، لعنهم الله تعالى، وكان لأسد الدين فى تلك الوقائع اليد البيضاء والفَعْلَةُ الغراء»[3].

أولا: علاقة زنكى مع نجم الدين أيوب:

أشارت كتابات ابن أبى طى إلى خوض نجم الدين أيوب بعض المعارك مع عماد الدين زنكى، فذكره بعد انتهاء حصار زنكى لقلعة بعلبك فى عام ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م، وانفرد ابن أبى طى فى هذا الموضوع بتوضيح بعض جوانب العلاقة بين نجم الدين أيوب وعماد الدين زنكى، حيث أظهرت روايته مدى تقدير زنكى واحترامه لنجم الدين أيوب، حيث قبل زنكى شفاعته فى بعض الأسرى من الأمراء والقوات فى قلعة بعلبك، عندما طلب منه إعفاء بعضهم من القتل، فأمر بالعفو عنهم وعلى من بقى من القوات وأطلق سراحهم[4].

قال ابن أبى طى: «و كان ولّى قتلهم «صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني»،

---

(١) وقد دفن بالفعل أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب في المدينة المنورة في نفس تربة جمال الدين الأصفهاني .
(ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٣ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٣٧) .

(٢) اتفق ابن الفرات مع ابن أبي طي وأورد نفس أسلوبه في توضيح العلاقة بين جمال الدين الأصفهاني و أسد الدين شيركوه انظر : (تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص٥٢ - ٥٣) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق . ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٨ .

(٤) أوضحنا في فصل الدولة الأتابكية أسباب قيام زنكي بأسر وقتل الأمراء بقلعة بعلبك .

فحكى أنه أحضر فى جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة، ومعه ولد أمْرَد كأنه فلقة قمر فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك ألا صلبتنى قبل ولدى لئلا أراه يعالج سكرات الموت ! و كان «نجم الدين أيوب» واقفا، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين فى إطلاقه فقال: ما أفعل خوفا من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك وسأله فى الشيخ وولده، وقص عليه ما قاله فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقى من الجماعة»[1].

ولاية نجم الدين أيوب بعلبك:

كان عماد الدين زنكى بعد بسط سيطرته على بعلبك قد أناب عليها نجم الدين أيوب، و ذكر ابن الأثير أنه جعله «دزداراً»[2] لقلعتها[3]، وقد أضاف ابن أبى طى بعض الامتيازات الأخرى التى منحها زنكى له فى بعلبك، وهى تعد مؤشرا مهما يشير إلى قوة العلاقة بينها فى ذلك الوقت، فأوضح أنه لم تكن لنجم الدين أيوب ولاية بعلبك فقط، وإنما وهبه نصفها، كما أوضح فى رواية أخرى أنه كتب له ثلثها ملكا فقال: «ووهبه نصف بعلبك. وقيل إن نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله فى الأمراء فأطلقهم له، وولاه بعلبك، وكتب له ثلثها ملكا، واستقر فيها هو وأهله ؛ ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكى، فأخرجه منها على ما سنذكره[4]»[5].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) دُزْدار : بمعنى حافظ القلعة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٤٢) .

(٣) الباهر ، ص ٥٩ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٦ ، ٣٣٠ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨ ـ ٩ ؛ النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٥ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٥٥ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٢٥ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥٢ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥ .

(٤) كانت بعلبك قد خرجت عن سيطرة الدولة الأتابكية في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، وملكتها قوات دمشق ، واستمر نجم الدين أيوب في ولايته لها من قبل أمير دمشق ، وفي عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م عادت بعلبك مرة أخري لسيادة الدولة الأتابكية ، فأرسل نور الدين محمود نجم الدين أيوب إلى دمشق . وهذه الأحداث سنتناولها بالتفاصيل في الصفحات القادمة .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٧ .

ولم تقتصر العلاقة بين نجم الدين أيوب و زنكى عند حد أنايته عنه فى بعلبك، حيث أوضح ابن أبى طى مشاركة نجم الدين أيوب مع عماد الدين زنكى أثناء حصار دمشق فى عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وانفرد ابن أبى طى فى روايته عن هذا الحصار بتوضيح جانب مهم فى هذه العلاقة، حيث أوضح أن العلاقة بينهما بلغت من القوة إلى حد أن كان عماد الدين زنكى يأخذ رأيه فى بعض أموره المهمة.

ففى أثناء هذا الحصار قدّم ملك دمشق جمال الدين بن بورى (٥٣٣ ـ ٥٣٤ هـ / ١١٣٨ ـ ١١٣٩ م) عرضا إلى عماد الدين زنكى يتضمن بعض الميزات التى يمنحها إليه فى مقابل فك حصاره عن دمشق[1]، واشتمل هذا العرض منحه خمسين ألف

دينار، ومدينة حمص. فعرض عماد الدين زنكى على نجم الدين أيوب هذا العرض، فأشار عليه بقبوله، وأوضح له الميزات التى تضمنها، وقد ذكر ابن أبى طى رأى نجم الدين أيوب فى هذا العرض فقال: « (قال نجم الدين لزنكى) **هذا مال كثير وقد حصل بلا تعب، وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلد عظيم، وقد آلف أهله هذا البيت وتمرنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التى جرت ببعلبك** »[2]. ولكن عماد الدين زنكى لم يقتنع برأى نجم الدين أيوب، لرغبته فى ضم دمشق إلى أملاكه فاستمر فى حصارها.

ثانيا العلاقة بين زنكى وأسد الدين شيركوه:

أظهرت كتابات ابن أبى طى السابقة عن العلاقة بين جمال الدين الأصفهانى وزير زنكى وأسد الدين شيركوه أنه خاض العديد من المعارك مع عماد الدين زنكى، كما شارك شيركوه زنكى فى آخر معاركه أثناء حصاره قلعة جعبر فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقد أشار ابن أبى طى إلى ذلك أثناء ذكره خبر مقتل عماد الدين زنكى أثناء هذا الحصار، حيث أوضح أن شيركوه كان قريبا من معسكر زنكى لحظة مقتله، فقال: «**لما اتصل قتل أتابك**

---

(١) تناولنا تفاصيل هذا العرض في فصل الدولة الأتابكية .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٧ .

بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين»[١].

العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية فى الشام:

شهدت العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية تطورا كبيرا، منذ ولايته حلب فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م حتى وفاته فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وظهر ذلك خلال العديد من الكتابات التى انفرد بها ابن أبى طى عن هذه العلاقة ومراحل تطورها.

أولا العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه:

كان أسد الدين شيركوه أكثر أفراد الأسرة الأيوبية ارتباطا بنور الدين محمود منذ عهد عماد الدين زنكى حيث كان يخدم فى الجيش تحت قيادته[٢]، ولهذا استمرت علاقته معه بعد مقتل زنكى، ولازم نور الدين محمود طوال فترة ولايته، وتطورت أحواله معه يوما بعد يوم، وكان لهذا الارتباط بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود أثرا كبيرا فى علو شأن أولاد أخيه نجم الدين أيوب، وبصفة خاصة ولده «صلاح الدين يوسف»، ومن هنا تأتى أهمية دراسة العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه أولا، ثم نوضح بعد ذلك العلاقة بين نور الدين محمود ونجم الدين أيوب وأولاده.

وقد أبرزت كتابات ابن أبى طى العلاقة بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود من خلال عرضه للدور الذى قام به شيركوه فى ولاية نور الدين محمود حلب عقب مقتل أتابك زنكى فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦م، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر هذا الدور بين كثير من المؤرخين، الذين اهتم معظمهم بذكر الدور الذى قام به «صلاح الدين الياغيساني» ـ حاجب زنكى الأسبق ـ فى تدبير أمور دولته فى حلب[٣]، ثم انتقال صلاح الدين بعد ذلك

(١) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص٥٣.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ١٣ ـ ١٤؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٧؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨؛ ابن

إلى ولايته فى حماة[1].

دور أسد الدين شيركوه فى ولاية نور الدين محمود حلب:

تناول ابن أبى طى فى هذا الموضوع الدور الذى قام به أسد الدين شيركوه فى ولاية نور الدين محمود حلب فى عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، فذكر أنه كان العقل المدبر وراء اتخاذ نور الدين محمود قراره بالانتقال إلى الشام، واختيار حلب مقرا لملكه، ثم تمكينه من دخول قلعة حلب.

أوضح ابن أبى طى فى بداية روايته مدى اهتمام أسد الدين شيركوه بأمر نور الدين محمود منذ سماعه نبأ مقتل عماد الدين زنكى، فذكر أنه اتجه على الفور نحو خيمة نور الدين محمود، فقال: «**لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين**»[2]، وهناك دار بينهما حديث، أورد منه ابن أبى طى فقط الحديث الذى دار على لسان أسد الدين شيركوه إلى نور الدين محمود.

وفيه أوضح شيركوه لنور الدين محمود تطورات الأمور فى جيش والده عقب مقتله، كما عرض عليه وجهة نظره بشأن مستقبله فى الشام. وقد عكس لنا هذا الحديث بعض

ملامح العلاقة بين أسد الدين شيركوه و نور الدين محمود قبل عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، فظهر فى خلفيته أن العلاقة بينهما كانت وطيدة، ولهذا سمح نور الدين محمود لأسد الدين

شيركوه بالحديث معه فى أهم أموره، كما ظهر فى ختام هذا الحديث اقتناع نور الدين محمود برأى أسد الدين شيركوه فيما عرضه عليه بشأن مستقبله فى الشام، وهذا يعد تطورا

الوردي : المصدر السابق ، ص ٤٥ ؛ ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ .

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١، ق١، ص ١١٩.

آخر فى العلاقة بينهما.

بدأ أسد الدين شيركوه حديثه مع نور الدين محمود باطلاعه على مجريات الأمور فى جيش والده، ومن ذلك الاستعدادات التى يقوم بها «جمال الدين الأصفهاني» - مدبر شئون زنكى الأسبق - من أجل توطيد ملك أخيه «سيف الدين غازى بن زنكي»[1] فى الموصل. فأوضح أنه انضم إلى هذا الفريق قوات الموصل، وعدد آخر من باقى القوات كما أبلغ شيركوه نور الدين محمود بما عرضه عليه جمال الدين الأصفهانى بشأن الانضمام معهم إلى الموصل - بحكم ما كان بينهما من صداقة، كما أوضحت كتابات ابن أبى طى من قبل - ولكنه رفض عرضه.

قال ابن أبى طي: «وقال (شيركوه) له: اعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعزم على تقديم أخيك سيف الدين وقصده إلى الموصل، وقد انضوى إليه جُل العسكر، وقد انفذ إلى جمال الدين وأرادنى على اللحاق به فلم أعرج عليه»[2].

ثم عرض أسد الدين شيركوه على نور الدين محمود ما يراه بشأن مستقبله فى الشام و تحديدا فى حلب، **فقال له: «وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسى ملكك، وتجتمع فى خدمتك عساكر الشام»**[3].

ومن هنا بات واضحا فى رأينا سبب رفض أسد الدين شيركوه عرض جمال الدين الأصفهانى، حيث وجد أن مستقبله ليس فى الموصل، لأن السيطرة ستصبح هناك فى أيدى

---

(١) هو سيف الدين غازي بن زنكي بن أق سنقر : حكم الموصل بعد مقتل والده في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، وتولي جمال الدين الأصفهاني الوزارة له، و كان محبا للعلم ويني بالموصل المدرسة العتيقة ، وتوفي في عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩ وهو في الأربعين من عمره . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص٣-٤ ؛ ج ٥ ، ص ١٤٤) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

جمال الدين الأصفهانى، وعلى العكس من ذلك كان شيركوه يخطط - كما أظهرت رواية ابن أبى طى - لكى يقوم مع نور الدين محمود بنفس دور جمال الدين الأصفهانى مع سيف الدين غازى، لأنه وجد أن مساعدته لنور الدين محمود وتمكين أموره فى الشام سيكون له أبلغ الأثر على علاقتهما فى المستقبل.

ثم أوضح أسد الدين شيركوه إلى نور الدين محمود الأسباب التى جعلته يفكر فى حلب لتكون مقرا لملكه فى الشام، وأظهر فى ذلك تفهما كبيرا لأهمية موقع حلب فقال

له: «**وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك، لأن ملك الشام يحصل «بحلب»**[1]، **ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق**»[2].

وانتهى إلى هنا حديث أسد الدين شيركوه إلى نور الدين محمود، وكتب ابن أبى طى بعد ذلك ما يوضح موافقة نور الدين محمود على وجهة نظر شيركوه بشأن انتقاله إلى حلب، فقال: «**فركب وأمر أن ينادى فى الليل فى عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا فى خدمة نور الدين إلى حلب**»، ثم أوضح دور أسد الدين شيركوه فى ولاية نور الدين محمود قلعة حلب فقال: «**ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها و قرر أمره و مشى أحواله**»[3].

ثم ختم ابن أبى طى روايته عن هذا الموضوع بعبارة لخص فيها أثر الدور الذى قام به أسد الدين شيركوه مع نور الدين محمود فى ولايته حلب، على العلاقة بينهما بعد ذلك

---

(١) ترجع أهمية موقع حلب إلي توسطها وقربها من العديد من المدن الكبيرة سواء في بلاد الشام ، مثل : حمص ، وحماة ، و دمشق ، و طرابلس ، وأنطاكية ، و اللاذقية . أو في بلاد الجزيرة الفراتية - الواقعة بين نهري دجلة و الفرات - مثل بلاد : حران ، و الرقة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ٢٨٤ ، ج ٣ ، ص ٥٩) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه و الصفحة .

وذكر موقف كل منهما من هذا الدور..

فبالنسبة لموقف نور الدين محمود، أشار ابن أبى طى إلى أنه كان يحفظ لشيركوه هذا الجميل، فقال: «كان نور الدين يرى له ذلك»، أما بالنسبة لأسد الدين شيركوه، فمن الواضح أنه كان لا يكفيه هذا مقابل دوره معه، ولذا نجد ابن أبى طى يقول عن شيركوه أنه كان: «يَمنّ (عليه) بأنه كان السبب فى توليته»[1]. وهذه العبارة تعد إشارة مهمة إلى بداية فتور العلاقة بينهم، وسنرى فى الصفحات القادمة من خلال كتابات ابن أبى طى التغييرات الأخرى التى ستطرأ على هذه العلاقة.

هكذا أوضح ابن أبى طى الدور الذى قام به أسد الدين شيركوه فى ولاية نور الدين محمود حلب عقب مقتل والده زنكى فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقد لاحظنا من خلال مقارنة كتابات ابن أبى طى مع كثير من المؤرخين انفراده بذكر تفاصيل هذا الدور بينهم، ولعل نشأة ابن أبى طى و إقامته فى حلب، قد وفرت له العديد من المصادر التى استمد منها معلوماته فى كتابة هذا الموضوع ، والتى لم تتوفر لغيره من المؤرخين.

و فى رأينا كان ابن أبى طى مبالغا فى تعظيم هذا الدور، ولعل حماسه أثناء كتابته السيرة الصلاحية قد دفعه إلى هذه المبالغة فى إظهار دور أسد الدين شيركوه باعتباره كان من أهم أفراد الأسرة الأيوبية الذين ساهموا بدور كبير فى ولاية صلاح الدين مصر ثم تأسيسه الدولة الأيوبية، ومع ذلك فإن هذه المبالغة فى أسلوب ابن أبى طى لا تقلل فى رأينا من أهمية روايته، حيث ألقى فيها الضوء على العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ العلاقات بينهما.

وقد ألمح إلى هذا الدور أيضا أحد الشعراء المعاصرين لهذه الأحداث وهو «ابن منير الطرابلسي»[2]، وكان مقيما بحلب، وكتب شعرا فأعجب به عماد الدين زنكى، فطلب منه

(١) المصدر نفسه و الصفحة .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسي الملقب مهذب الدين عين الزمان : ولد في عام ٤٧٣ هـ /

أن يأتي إليه، وكان فى ذلك الوقت محاصرا لقلعة جعبر، فوصل إليه ابن منير فى نفس الليلة التى قتل فيها[1]، وقال عن هذا الدور: «فأخذ أسد الدين شيركوه...نور الدين محمود بن زنكى و عسكر الشام وعاد بهم إلى حلب». ودخل ابن منير إلى حلب فى صحبة هذه القوات[2]. وأكده أيضا المؤرخ «أبو شامة» فقال: «وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك»[3].

وبعد استقرار ملك نور الدين محمود فى حلب، خاض أسد الدين شيركوه معه العديد من المعارك على الصعيدين الصليبى والإسلامى، وفى خلال هذه الفترة طرأ على العلاقة بينهما بعض التغيرات، معظمها كانت لصالح أسد الدين شيركوه ومع هذا فلم تخل العلاقة بينهما من الفتور فى بعض الأحيان.

معارك أسد الدين شيركوه مع إمارة إنطاكية الصليبية:

خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوات حلب بعد أسبوع واحد من وصولهم إليها فى ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م، حيث هاجمت قوات الأمير ريموند دى بواتييه Raymond de potier (١١٣٦ ـ ١١٤٩م/ ٥٣٠ ـ ٥٤٤)، المناطق القريبة من حلب، فتصدى أسد الدين شيركوه لهم، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر هذه المعركة و بدور شيركوه فيها، وهى تعتبر من أوائل المعارك التى خاضها فى حلب ، و تُعد أيضا بداية لتسجيل تاريخه العسكرى بعد ولاية نور الدين محمود حلب.

قال ابن أبى طى: «فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجد فى

١٠٨٠ م بطرابلس ، وكان كثير الهجاء ، وتوفي بحلب في عام ٥٤٨ هـ/ ١١٥٢ م . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١، ص ١٥٦ ـ ١٦٠) .

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨؛ ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١، ق ١ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

السير، ففاته الفرنج وأدرك جماعة من الرَّجَّالة يسوقون الأسرى فقتلهم وَاسْتنقذ كثيرا مما كانت الفرنج أخذته ؛ وسار مُجَنبا عن طريق الفرنج إلى أن شنَّ الغارة على بلد «أرْتَاح»[1]، و استاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفرا»[2].

فتور العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه:

بعد فترة وجيزة من ولاية نور الدين محمود حلب، سقطت مدينة «بعلبك» ـ والتى كانت تابعة للدولة الأتابكية منذ عام ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م ـ فى أيدى قوات دمشق، حيث استغل الأمير «مجير الدين آبق» (٥٣٤ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٣٩ ـ ١١٥٤ م) أمير دمشق ظروف اضطراب الدولة الأتابكية بعد مقتل أتابك زنكى وقام بحصار بعلبك حصارا شديدا فاستسلم له واليها «نجم الدين أيوب»، فأبقاه مجير الدين آبق نائبا عنه فى ولاية بعلبك[3].

وقد أثرت هذه العلاقة بين نجم الدين أيوب وأمير دمشق على العلاقة بين أسد الدين شيركوه و نور الدين محمود، وساهمت فى فتور العلاقات بينهما، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر هذا التطور المهم فى العلاقة، فقال: «ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده، ومال نور الدين إلى «مجد الدين أبو بكر بن الداية» حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين»[4].

وفى رأينا كان اتخاذ نور الدين محمود هذا الموقف أمرا طبيعيا بسبب خوفه على دولته التى لا تزال فى خطواتها الأولى من اتحاد نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه مع أمير دمشق ضده، وخاب بذلك أمل شيركوه فى أن يكون له مساحة كبيرة من السلطة السياسية فى دولة نور الدين محمود، وظل يمارس دوره العسكرى فى جيش نور الدين

(١) أرْتاح : حصن منيع من أعمال حلب . (ياقوت : معجم البلدان ،ج١، ص١٤٠) .
(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١، ق ١ ، ص ١٢٤ .
(٣) سنوضح هذا الموضوع عند تناولنا العلاقة بين نجم الدين أيوب و نور الدين محمود .
(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١، ق ١ ، ص ١٢٤ .

محمود.

واستمر هذا الفتور قائما فى العلاقة بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود ثم بدأت تعود العلاقات بينهما إلى سابق عهدها، وقد ظهرت بوادر ذلك خلال إحدى المعارك التى خاضها أسد الدين شيركوه مع نور الدين محمود مع إمارة إنطاكية، وتعرف بموقعة «يغرا» ووقعت أحداثها فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، وانتهت بهزيمة قوات نور الدين محمود، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر هذه المعركة، وبالحوار الذى دار بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه خلالها.

قال ابن أبى طى: «**أن أسد الدين لما كان فى نفسه على نور الدين من تقديم ابن الدايه عليه لم ينصح يومئذ وهى واقعة «يغرا» ؛ ومرَّ به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة فى مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا، فقال: يا «خوند»[1] إيش ننفع نحن ؟ إنما ينفع مجد الدين أبو بكر، فهو صاحب الأمر. فاستشرك نور الدين {ذلك وطيب قلب أسد الدين}[2] بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه وأصلح بينهما**»[3].

وكما رأينا فقد ظهر من رواية ابن أبى طى عن هذه المعركة، أن أسد الدين شيركوه لم يقم فيها بواجبه العسكرى على أكمل وجه، وأرجع ذلك إلى ضيقه من تمييز نور الدين مجد الدين بن الداية عليه، وقد أضاف المؤرخ «رنسيمان» سببا آخر من أسباب نفور أسد الدين شيركوه تجاه مجد الدين بن الداية، فذكر أنه وقع شجار بينهما أثناء تلك المعركة، ورفض

---

(١) خوند : لفظ أعجمي بمعني السيادة ، وقد غلب استعماله في العالم الإسلامي كلقب عام بمعني السيد أو الأمير أو السيدة أو الأميرة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٦ ، ص ٧٨؛ حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٢٨٠) .

(٢) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥ (طبعة دار الجيل) ، ص ١٤٤ (طبعة دار الكتب) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ١٤٣ ـ ١٤٤ (طبعة دار الكتب) .

شيركوه على أثره الاشتراك فى القتال[1] وهذا يفسر ما أورده ابن أبى طى فى ختام روايته عن قيام نور الدين محمود بالإصلاح بين أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية.

ثم قام أسد الدين شيركوه فى العام التالى بدور مهم فى الانتصار الكبير الذى أحرزته قوات نور الدين محمود مع إمارة إنطاكية الصليبية، حيث دارت بينهما معركة مهمة فى عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م، وانتهت بمقتل أمير إنطاكية «ريموند دى بواتييه» على أيدى أسد الدين شيركوه، و ساهم هذا الانتصار فى ارتفاع مكانته لدى نور الدين محمود.

الدين محمود. وقد انفرد ابن أبى طى هنا أيضا بذكر دور شيركوه فى هذه المعركة، فقال: «حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقتل البرنس صاحب إنطاكية وجماعة من وجوه عسكره... وكان لأسد الدين فى هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إن كان آل فرنج أدركوا «فلجا»[2] فى يوم يغرا، ونالوا منية الظفر
ففى الخطيم خطمت الكفر منصلتا أبا المظفر بالصمامة الذكر
نالوا بيغرا نهابا، وانتهبت لنا على الخطيم نفوس المعشر {الأشر}[3]
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا قوامص الكفر فى ذل وفى صغر

ثم قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا، وفى هذه السنة عظم أمر أسد الدين»[4].

وقد كانت هذه الموقعة آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن معارك نور الدين محمود مع إمارة إنطاكية الصليبية، وقد شارك أسد الدين شيركوه فى معظم معارك نور

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٢٤.
(٢) الفُلج: الظفر والفوز. (الرازي: مختار الصحاح، ص ٥٣٥).
(٣) في طبعة «دار الجيل». «البتر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٥٨).
(٤) المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ١٥١ (طبعة دار الكتب).

الدين الأخرى التى خاضها مع البلاد الإسلامية و الصليبية.

دور شيركوه فى سيطرة نور الدين محمود على دمشق:

ساهم أسد الدين شيركوه بدور كبير فى سيطرة نور الدين محمود على دمشق فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ م، ففضلا عن دوره العسكرى كقائد كبير فى جيشه، فقد أظهرت كتابات «ابن القلانسي» ومن بعده «ابن أبى طي» أن علاقته بنور الدين محمود بلغت درجة كبيرة من الثقة إلى حد أن بدأ يوفده رسولا من جهته، وفى هذا العام أرسله إلي» مجير الدين آبق» أمير دمشق، فصار إليه فى موكب كبير فى ألف فارس[١]، وهذه القوة تعادل الجيش الذى خرج به أسد الدين شيركوه إلى مصر لإعادة الوزير شاور إلى منصبه فى الوزارة فى عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤م كما سبق أن ذكرنا، وهذا خشى مجير الدين من وصول شيركوه بهذا العدد الكبير، ورفض استقباله، فاتخذ أسد الدين شيركوه بالاتفاق مع نور الدين محمود من هذا ذريعة لإعلان الحرب على دمشق.

قال ابن أبى طى عن هذا الدور: «أنفذ نور الدين{أسد الدين}[٢] شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق، فخرج فى تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظُم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة ؛ ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحدٌ من أمراء دمشق. فاستوحش أسد الدين... وأغلظ لصاحب دمشق فى المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرفه بما جرى عليه، فسار نور الدين فى عساكره، وزحف إلى البلد»[٣].

ثم انفرد ابن أبى طى بذكر دور أسد الدين شيركوه العسكرى فى هذه المعركة والامتيازات التى منحها له نور الدين محمود بعد ملكه دمشق، فقال: «وتولى أسد الدين

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠٣ .

(٢) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ (طبعة دار الكتب) ، ج ١ ، ص ٩٦ (طبعة دار الجيل) .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ (طبعة دار الكتب) .

القتال، وأبلى الجهد... وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى فى فتحها فولاه نور الدين أمرها، ورد إليه جميع أحوالها. وفى هذه السنة أقطعه نور الدين» الرحبة[1]»[2].

ثم عرض ابن أبى طى فيما وصلنا من كتاباته إحدى معارك أسد الدين شيركوه مع الصليبيين، ووقعت أحداثها فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م بعد سيطرة نور الدين محمود على مدينة بانياس. وكان نور الدين محمود قد أرسل ما غنمه من البلد والأسرى معه إلى دمشق، فهاجمته قوة صليبية، فتمكن شيركوه من هزيمتها. وقد انفرد ابن أبى طى بهذه المعركة فقال: «أنفذ (نور الدين) الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس. واتصل ذلك بالفرنج، فانهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها، واتصل هذا بأسد الدين، وقد دهمته الفرنج، فلبس لامته، وتقدم فى جماعة من مماليكه بين يدى العسكر، وأمر الرجال بلقاء الفرنج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أدبارهم وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر؛ وغنم منهم غنيمة حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافرا وتوجه فى وجهته مؤيدا»[3].

علو شأن أسد الدين شيركوه فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م:

فى خلال هذا العام علا شأن أسد الدين شيركوه فى دولة نور الدين محمود، وأظهرت الأحداث التى أعقبت تعرض نور الدين محمود لمرض شديد فى هذا العام المكانة التى وصل إليها أسد الدين شيركوه فى ذلك الوقت، وكان نور الدين محمود عند اشتداد المرض

---

(١) الرحَبة : وتعرف برحَبة مالك بن طَوْق : تقع بين الرقة و بغداد على شاطئ نهر الفرات ، وذكر « ياقوت » أن أسد الدين شيركوه كان قد أناب فيها « يوسف بن الملاح الحلبي » ، فأساء السيرة فيها ، فأرسل إليه « يحيى بن النقاش الرحبي » أبياتا من الشعر توضح ما يعانوه من سوء حكمه (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤ ـ ٣٦) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .

عليه قد جمع كبار الأمراء فى دولته، ووضع بين أيديهم وصيته، فأوصى بولاية العهد من بعده لأخيه الأصغر«نصرة الدين أمير أميران» وقد حظى أسد الدين شركوه بنصيب كبير من وصيته، فأوضح «ابن القلانسي» أنه أوصى بأن يكون نائبا عن أخيه نصرة الدين فى ولاية دمشق[١]، كما أشار ابن أبى طى إلى أنه عهد إليه بقيادة قواته، فقال: «فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر»[٢].

وعلى أثر اشتداد المرض على نور الدين محمود نقله كبار أمرائه إلى حلب فى القلعة بها، و انتقل أسد الدين شيركوه إلى دمشق، وقد برر «ابن القلانسي» ذهابه إليها بقصد حمايتها من هجمات الصليبيين أو من غيرهم[٣]، و اتفق معه ابن أبى طى فى ذلك فقال: «فسار أسد الدين إلى دمشق وأقام «بمرج الصفر»[٤] خوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها ؛ ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، مهنئا له بالعافية»[٥].

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن بعض المؤرخين وفى مقدمتهم «ابن الأثير» قد أساءوا فهم موقف أسد الدين شيركوه من ذهابه إلى دمشق ، ونسبوا إليه أنه كان طامعا فى الاستيلاء على دمشق[٦].

وفى صفر عام ٥٥٤ هـ / ١١٤٩ م أوفد نور الدين محمود أسد الدين شيركوه رسولا إلى الموصل، حيث كان قد أصيب بالمرض مرة ثانية فى ذى الحجة عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٦ ؛ عيون الروضتين ، ق ١ ، ص٢٤٦ .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

(٤) مَرْجُ الصَفَّر : مكان بدمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٠١) .

(٥) أبو شامة : الروضتين ،ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٦ ؛ عيون الروضتين ، ق ١ ، ص ٢٤٦ـ ٢٤٧.

(٦) الكامل ،ج ٩، ص ٦٧ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٣٠٩ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٥ ؛ ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

وقد أوضح «ابن القلانسي» أنه عهد فى هذه المرة إلى أخيه «قطب الدين مودود بن زنكي» (٥٤٤ ـ ٥٦٥ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٧٠ م) أمير الموصل بولاية الدولة من بعده، فأوفد لذلك قطب الدين مودود وزيره «جمال الدين الأصفهاني» رسولا إلى نور الدين محمود، فاجتمع معه ثم عاد إلى الموصل، وأوفد معه نور الدين محمود أسد الدين شيركوه رسولا إلى قطب الدين مودود[١].

واتفق ابن أبى طى فى عرضه لهذا الموضوع مع ما ذكره ابن القلانسى، فقال: «لما وصل الوزير «جمال الدين» إلى حلب تلقاه موكب نور الدين... وأكرم غاية الإكرام ؛ وأعيد إلى صاحبه شاكرا عن نور الدين، وسير معه الأمير أسد الدين شيركوه رسولا إلى قطب الدين بالشكر والثناء عليه ؛ وأنفذت معه هدايا سنية»[٢].

غارة أسد الدين شيركوه على صيدا:

بعد عودة أسد الدين شيركوه من الموصل فى عام ٥٥٤ هـ/ ١١٤٩ م، أرسله نور الدين محمود للإغارة على صيدا، وقد أشار ابن القلانسى إلى هذه الغارة وذكرها ضمن أحداث ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م[٣]، وعرض أيضا ابن أبى طى المعركة واتفق مع ابن القلانسى فى نتائجها، فقال: «فسار (شيركوه) وعاد إلى حلب مكرما..... ثم انهض (نور الدين) أسد الدين فى قطعة من العسكر للإغارة على بلد صيدا ؛ فسار..... ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث فى بلد صيدا وقتل وأسر عالما عظيما، وغنم غنيمة جليلة ؛ و{عاد}[٤]، فاجتمع بنور الدين على «جسر الخشب»[٥]»[٦].

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج ١ ، ق ١، ص ٣٠٦ .

(٣) المصدر السابق، ص ٥٣٧ .

(٤) في طبعة « دار الجيل » . « علا » . (أبو شامة : الروضتين، ج ١ ، ص ١٢٣) .

(٥) جسر الخشب : ويعرف أيضا بمنازل العسكر .(ابن القلانسي : تاريخ دمشق، ص ٤٧٩) .

(٦) أبو شامة : الروضتين، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٦ .

أداء أسد الدين شيركوه فريضة الحج:

قام أسد الدين شيركوه بأداء فريضة الحج فى عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م، وقد أثنى ابن الجوزى على ما قام به من أعمال الخير هناك، فقال: «وبث فى الحرمين معروفا كثيرا

ولم يفعل « كوجك »[١] شيئا يذكر به على كثرة ماله»[٢].

وقد أورد ابن أبى طى أيضا هذا الخبر، ولكنه اختلف مع ابن الجوزى فى توقيت سفره، وأورده ضمن أحداث عام ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م، كما انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل أخرى عنه أثناء الحج، وعن اهتمام نور الدين محمود باستقباله عند عودته. فقال: «فى هذه السنة حج أسد الدين من الشام وخرج فى تجمل عظيم وشارة رائقة ؛ واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة. ويقال أنه كان معه ألف نفس يجرى عليهم الطعام والشراب. وحج «على كوجك المعروف بزين الدين»من العراق ؛ وحج «ملهم» أخو«ضرغام» وزير مصر فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز. وعاد أسد الدين شيركوه سالما وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوما عظيما»[٣].

العلاقة بين نور الدين محمود ونجم الدين أيوب وأولاده فى الشام:

بدأت العلاقة بين الدولة الأتابكية والأسرة الأيوبية بين عماد الدين زنكى ونجم

(١) هو زين الدين علي كوجك : تركماني الأصل ، وعرف بكجك لقصر قامته ، وهو لفظ أعجمي ، يعني في اللغة العربية « صغير» . مَلك مدينة « إربل» وبلاد أخرى غيرها ، و فرقها جميعا علي أولاد « قطب الدين مودود بن زنكي » أمير الموصل ، ولم يبق له سوي إربل . وعاش عمرا طويلا ويقال أنه جاوز المائة ، وأصابه العمي في آخر أيامه، وتوفي في إربل عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨ م . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١١٤) .

(٢) المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٩٦ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١١ .

الدين أيوب منذ عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، وقد حظى نجم الدين أيوب وأسرته - كما سبق أن أوضحنا - منذ ذلك الوقت باهتمام ورعاية زنكى، وعهد إليه بولاية بعلبك نيابة عنه منذ أن ملكها فى عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وظل نجم الدين أيوب واليا عليها حتى قُتل زنكى فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقد أحدثت وفاة زنكى المفاجئة اضطرابا فى دولته، وشجع هذا أمير دمشق «مجير الدين آبق» (٥٣٤-٥٤٩ هـ / ١١٣٩-١١٥٤ م) على إعادة بعلبك مرة أخرى إلى سيطرة دمشق، فأقام حولها حصارا شديدا، وتمكنت قواته من ملكها، وقد عرض ابن أبى طى موقف نجم الدين أيوب من هذا الحصار فقال: «اشتد صاحب دمشق فى القتال، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبر..... فاشتد الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة[1]»[2].

- وصارت بعلبك منذ ذلك الوقت تتبع دمشق، وفيما يتعلق بأحوال نجم الدين أيوب بعد ذلك، فقد أكد ابن الأثير أنه انتقل للإقامة فى دمشق، بعد أن منحه أميرها مالا وإقطاعا يضم عشرة قرى بها[3]، ولقد اختلف ابن أبى طى مع ابن الأثير فى ذلك، وأكد بقاء نجم الدين فى بعلبك واليا عليها من قبل أمير دمشق فقال: «فاستخلف صاحب دمشق نجم الدين، وأقر له الثلث الذى كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها»[4].

و أكد ابن أبى طى بقاء نجم الدين أيوب فى بعلبك فى كثير من كتاباته الأخرى عن تاريخ نجم الدين أيوب، وسوف نلاحظ ذلك من خلال عرضنا لهذه الكتابات فى الصفحات القادمة، كما ذكر «ابن القلانسي» أثناء عرضه لأحداث الغارة الصليبية على البقاع فى عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م، تصدى والى بعلبك لهذه الغارة، وأكد «أبو شامة» بعد

---

(١) عرضنا رواية ابن أبي طي عن هذا الحصار في الفصل الخاص بتاريخ الدولة الأتابكية .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٤ .

(٣) الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٠ ؛ أبو الفداء . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩ ؛ ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٤ .

ذكره لنص ابن القلانسى، أن هذا الوالى كان نجم الدين أيوب[١].

وقد أكد رأى ابن أبى طى بعض المؤرخين اللاحقين به أثناء ذكرهم لحوادث أخرى، فقال ابن العبرى فى أحداث عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م: «فيه خرج صلاح الدين من عند نجم الدين أيوب أبيه وهو فى بعلبك»، كما ذكر ابن قاضى شهبه فى أحداث عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م: «فيها تسلم نور الدين محمود بعلبك وكانت بيد نجم الدين أيوب»[٢]

ولقد كان لخروج بعلبك من أملاك الدولة الأتابكية فى الشام، ودخولها هى ووالیها نجم الدين أيوب فى سلطة دمشق، أثرا كبيرا على العلاقة بين نجم الدين و نور الدين محمود، فأوضح ابن أبى طى أن نور الدين داخله الخوف من علاقة نجم الدين أيوب مع أمير دمشق، وزاد خوفه من اتحاد أسد الدين شيركوه معهم فى العمل عليه، ولهذا قرر إبعاد شيركوه عن شئونه السياسية كما ذكرنا من قبل. فقال: «ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده»[٣].

وظلت بعلبك تتبع سلطة دمشق منذ عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م حتى عودتها مرة أخرى إلى تبعية الدولة الأتابكية فى عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م، وطوال هذه الفترة لم يصل إلينا من كتابات ابن أبى طى ما يوضح طبيعة العلاقة بين نجم الدين أيوب و نور الدين محمود ونستطيع أن نقول من خلال بعض الإشارات التى وردت فى كتاباته أنه إذا كان نجم

الدين أيوب لم تقم بينه وبين نور الدين محمود علاقات مباشرة بحكم علاقته مع دمشق، إلا أن هذا لم يمنع أولاده من الالتحاق بجيش نور الدين محمود خلال تلك الفترة. فأشار ابن أبى طى أثناء عرضه لأحداث معركة «يغرا» بين نور الدين محمود وإمارة إنطاكية

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٩٢؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٩ .
(٢) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١٦٧؛ ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية، أحداث عام ٥٥٠ هـ
(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٤ .

فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، إلى مشاركة «شاهنشاه بن نجم الدين»[١] فيها، فقال: «وقُتل فى هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب، أخو الملك الناصر، وقيل: فى كسرة «البقيعة[٢]»[٣].

كذلك انضم «يوسف بن نجم الدين أيوب» ـ والملقب بعد ذلك بالملك الناصر صلاح الدين ـ إلى قوات نور الدين محمود فى حلب فى عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١م، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر هذه الرواية التى تعد إضافة مهمة توضح بداية ظهور اسم صلاح الدين على مسرح الأحداث، ومن ناحية أخرى توضح بداية علاقته بالملك العادل نور الدين محمود فقال: «وفى هذه السنة فارق صلاح الدين والده، وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، فقدمه بين يدى نور الدين، فقبله وأقطعه إقطاعا حسنا[٤]»[٥]

أما بالنسبة لأحوال نجم الدين أيوب أثناء ولايته بعلبك، فقد أوضح ابن أبى طى إحدى المعارك التى تلقى الضوء على دوره فى حماية بعلبك، وتصديه لهجمات الصليبيين على البقاع فى عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م، وقد ذكر ابن القلانسى تفاصيل هذه المعركة والظروف التى مهدت لها[٦]، واتفق معه ابن أبى طى اتفاقا كبيرا، مما يؤكد أن كتابات ابن القلانسى

---

(١) الأمير نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين بن شاذي : أكبر أبناء نجم الدين أيوب ، قتل في عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م في إحدى المعارك مع الصليبيين علي أبواب دمشق ، وواصل ولداه عز الدين فرخشاه و تقي الدين عمر ، العمل في جيش نور الدين محمود ، ومن بعده مع صلاح الدين . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢، ص ٤٥٢ ؛ الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٧٨) .

(٢) هزم فيها نور الدين محمود عند حصن الأكراد في عام ٥٥٨ هـ . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٩ (رواية العماد الأصفهاني) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٤٤ ؛ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ورقة ٩٣ ؛ النعيمي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٤) اتفق ابن العبري مع رواية ابن أبي طي عن بداية التحاق صلاح الدين بخدمة نور الدين محمود ، وذكر نفس معاني روايته بأسلوب مختلف . (تاريخ الزمان ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٦) لمزيد من التفاصيل انظر . (ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢) .

كانت إحدى مصادره التى اعتمد عليها فى هذه المعركة، وانفرد ابن أبى طى بذكر دور «تورنشاه بن نجم الدين أيوب» فيها.

قال ابن أبى طى عن هذه المعركة: «فى سنة ست و أربعين أغار التركمان على بانياس، فخرج أهل بانياس من الفرنج، واستنقذوا ما أخذوه ؛ فعاد التركمان عليهم فكسروهم. و اتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان«الهدنة»[1] المنعقدة بينه و بين الفرنج ؛ فأنفذ عسكرا إلى التركمان استعاد منهم ما أخذوه ، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا فى جيش عظيم، و شنوا الغارة على البقاع و الناس غافلون ؛ فامتلأت أيديهم من الغنائم و الأسارى. و اتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو فى بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق و أصحابه، فقدم عليهم ولده شمس الدولة، فخرج و أوقع بالفرنج. و اتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم، و جاء شمس الدولة وهم متورطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة، و خلص من كان عند الفرنج من الأساري»[2].

سيطرة نور الدين محمود على بعلبك:

عادت بعلبك مرة أخرى إلى سيادة الدولة الأتابكية فى الشام، وكان ذلك ـ كما أوضح

---

(١) كان بين معين الدين إنر ـ والذي كان بيده الحكم الفعلي في دمشق ـ ومملكة بيت المقدس الصليبية معاهدات تحالف . ففي عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م وبسبب حصار عماد الدين زنكي دمشق ، عقدت معاهدة بين معين الدين إنر و الملك « فولك الأنجوي » (١١٣١ ـ ١١٤٣ م / ٢٦ / ٥٢٧ ـ ٥٣٨ هـ) وتقرر فيها أن يقوم إنر بدفع عشرين ألف قطعة من الذهب نفقة الحملة الصليبية لمساعدته علي فك الحصار ، كما تعهد أيضا بالمساعدة لإعادة بانياس مرة ثانية إلي الحكم الصليبي، ثم عقدت هدنة ثانية في المحرم ٥٤٤ هـ / مايو ١١٤٩ م لمدة سنتين، وهذه الهدنة التي ألمح إليها ابن أبي طي في النص . (ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٤٢٦ ، ٤٧٢ ؛ وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٤١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

«ابن القلانسي» ـ في عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م[١]، وقد اتفق ابن أبي طي معه في هذا التاريخ[٢]، ولكن «ابن الأثير» أورد تاريخا آخر مخالفا لهما، وذكر أنه ملكها في عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م[٣].

وقد أورد ابن أبي طي روايتين في ملك نور الدين محمود بعلبك، أوضح في الأولى أنه كان لنجم الدين أيوب دورا في ملكه إياها، وانفرد بذكر ذلك، فقال: «لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك، فانفذ إليه وتسلمها منه، وألحقه بأصحابه»[٤].

أما الرواية الثانية فقد ناقشناها في فصل سابق[٥]، وفيها أوضح ابن أبي طي أن نجم الدين أيوب لم يعد حاكما للقلعة في بعلبك، وولى أمير دمشق آخر أمرها، فتسلمها منه نور الدين محمود، فقال: «ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن «مجير الدين» صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد، وولى القلعة رجلا يقال له «ضحاك». فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا»[٦].

وقد شهدت العلاقة بين نجم الدين أيوب وأولاده و الملك العادل نور الدين محمود تطورا كبيرا بعد عودة بعلبك إلى سيادة الدولة الأتابكية، وقام أسد الدين شيركوه بدور كبير في تحول العلاقة بينهما لتأخذ شكلا أكثر وديا، فولاهم نور الدين محمود العديد من الوظائف في دمشق.

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٠٩ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ١، ص ٢٥٠ (رأي ابن أبي طي) .

(٣) الكامل، ج٩ ، ص ٥٧ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق، ج٢ ، ص ٣٠٨ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ١، ص ٢٥٠ .

(٥) وهو الفصل الخاص بكتابات ابن أبي طي عن تاريخ الدولة الأتابكية .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ١، ص ٢٥٠ .

وقد انفرد ابن أبي طي بذكر ذلك، فقال عن علاقة نجم الدين أيوب مع نور الدين محمود: «وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد «نظر»[1] دمشق إليه»[2].

أما بالنسبة لأولاد نجم الدين أيوب، فقد ولى نور الدين محمود «تورانشاه» الشرطة في دمشق، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر ذلك، فقال: «وولى ولده تورنشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة»[3]. وقد أكد «أبو شامة» ولايته لها وأورد بعض أبيات من الشعر التي قيلت في مدحه أثناء فترة عمله في شرطة دمشق[4].

ثم قال ابن أبي طي: «ولم يزل (تورنشاه) بها إلى أن توفي»[5]. ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن ابن أبي طي لم يكن دقيقا فيما ذكره عن توقيت وفاة تورانشاه حيث كانت وفاته في عام ٥٧٦ هـ/ ٨٠ - ١١٨١ م[6]، و أشار أيضا «أبو شامة» إلى هذا الخطأ[7]. وقد نفى ابن أبي طي بعد ذلك ما ذكره هنا عن توقيت وفاة تورانشاه، بعرضه لكثير من الأحداث التي شارك فيها تورنشاه بعد ذلك، ومن بينها أحداث سيطرته على بلاد النوبة في عام ٥٦٨ هـ/ ١١٧٣ م[8].

وحظي أيضا «يوسف بن نجم الدين أيوب» الملقب بعد ذلك بصلاح الدين باهتمام

---

(١) الناظر : هو الموظف المعنى بالأمور المالية ، وهو مأخوذ إما من النظر الذي هو رأي العين لأنه يدير نظره في أمور ما ينظر فيه ، و إما من النظر بمعني الفكر ، لأنه يفكر فيما فيه المصلحة من ذلك . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٥ ؛ بدري محمد فهد : تاريخ العراق ، ص ١٢٧) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١، ص ٢٥٠ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١، ص ٢٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥٢ .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٨) ستتناول هذه الأحداث في الفصل القادم .

نور الدين محمود، فذكر «العماد الأصفهاني» أنه ولاه الشرطة فى دمشق[١]، واتفق معه ابن أبى طى فقال: «فولى صلاح الدين شحنكية دمشق»[٢]، وانفرد ابن أبى طى بذكر عمله بعد ذلك مع «أبى سالم بن همام»[٣] «صاحب الديوان»[٤] فى دمشق. وكان ابن القلانسى قد أوضح أن أبا سالم هذا ساءت سيرته فى الديوان، فحُقق معه وقبض عليه، وصدر أمر نور الدين محمود باعتقاله، فاتبعت معه المراسم التى تشير إلى إدانته، فحلقت لحيته وطيف به فى أسواق دمشق[٥].

وقد اتفق ابن أبى طى مع ابن القلانسى فى روايته عن أبى سالم بن همام، و أضاف بعض التفاصيل الأخرى التى توضح سوء العلاقة بين صلاح الدين و أبى سالم بن همام أثناء فترة عمله معه فى الديوان، الأمر الذى أدى لمغادرة صلاح الدين الديوان، ولعله كشف قبل تركه مساوئ أبى سالم، ولهذا ذكر ابن أبى طى معاقبة نور الدين محمود له بعد رحيل صلاح الدين فقال: « (فولى صلاح الدين) الديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب، لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان {أبى سالم بن همام}[٦]، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته وطيف به فى دمشق»[٧].

ثم توطدت العلاقة بعد ذلك بين نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف بن أيوب،

---

(١) سنا البرق، ص ١٠٧ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ١، ص ٢٥٠ .

(٣) أبو سالم بن همام الحلبي : ولاه أسد الدين شيركوه ـ نائب نور الدين محمود في دمشق ـ مشارفة الديوان بدمشق ، فساءت سيرته ، فأصدر نور الدين أوامره بالقبض عليه في شوال عام ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ، ثم نفي إلي حلب . (ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٥١٦) .

(٤) صاحب الديوان : وهو ثاني رتبة « الناظر » في المراجعة ، وله أمور تخصه كترتيب الدرج ونحو ذلك . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥١٦ .

(٦) في طبعة « دار الجيل » : « أبي سالم همام » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٠) .

(٧) المصدر نفسه ، ج١ ، ق ١ ، ص ٢٥٠(طبعة دار الكتب) .

فذكر العماد الأصفهانى أن نور الدين محمود كان مولعا باللعب بالكرة، وكان صلاح الدين يشاركه اللعب[١]، واتفق ابن أبى طى مع العماد فى ذلك، و أضاف بعض التفاصيل الأخرى عن العلاقة بينهما، فقال: «و استخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا فى لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة»[٢].

ولم يقتصر عمل نجم الدين أيوب فى الدولة الأتابكية على توليه نظر دمشق، بل كان يشارك أيضا هو وأولاده أخيه أسد الدين شيركوه فى غاراته على البلاد الصليبية، ومن ذلك مشاركتهم فى الإغارة على صيدا فى عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م، وقد انفرد ابن أبى طى بذكر اشتراكهم فى هذه الغارة، فقال: «ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم انهض أسد الدين فى قطعة من العسكر للإغارة على بلد «صيدا» ؛ فسار وسار ومعه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده»[٣].

وقد كان اشتراك نجم الدين أيوب وأولاده مع أخيه أسد الدين شيركوه فى هذه الغارة آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبى طى التى توضح الأحداث التى شاركت فيها الأسرة الأيوبية فى بلاد الشام فى عهد نور الدين محمود، وأوضحت كتاباته بعد ذلك الأحداث

التى شاركت فيها الأسرة خارج حدود بلاد الشام، وتحديدا فى مصر، حيث شاركت فى أحداث حملات نور الدين الثلاث على مصر ، وكانت هذه الأحداث أولى الخطوات التى كان لها أبلغ الأثر فى تمهيد الطريق أمام ولاية الأسرة الحكم فى مصر.

---

(١) سنا البرق ، ص ٢٣؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٢ (رواية العماد) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠٦ .

العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية فى مصر:

أولا: علاقة نور الدين محمود مع أسد الدين شيركوه:

كان أسد الدين شيركوه قد بلغ مكانة عسكرية كبيرة فى دولة نور الدين محمود، ولهذا عندما سنحت لنور الدين محمود فى عام ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م الفرصة لاستطلاع أحوال مصر من خلال إرسال حملة عسكرية لإعادة الوزير الفاطمى «شاور السعدي» إلى منصبه فى الوزارة، لم يجد أفضل من أسد الدين شيركوه لقيادة هذه الحملة، فكتب ابن أبى طى عن ذلك قائلا: «وفى هذه الأيام أنفذ نور الدين و استحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون نقيبته، لأنه لم يرسله فى أمر إلا نجح ولم يوجه فى مضيق إلا انفتح»[1].

وقد نجح شيركوه فى تنفيذ ما أسند إليه، ثم عاد إلى الشام، وقام بإطلاع نور الدين محمود على نتائج هذه الحملة، وقال ابن أبى طى عن هذه النتائج: «ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشوقه إلى ملكها، فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال»[2].

ولهذا أرسل نور الدين محمود أسد الدين شيركوه على رأس حملة ثانية لغزو مصر فى عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م، وقد تحركت الحملة فى كثير من أنحاء مصر من الصعيد جنوبا إلى الإسكندرية شمالا، ثم غادرت مصر بعد أن تقصت أحوالها وعلمت مواطن ضعفها ومدى ثرائها، وأبلغ شيركوه نور الدين محمود بهذا بعد عودته إلى الشام. قال ابن أبى طى فى شرح ذلك: «وخرج أسد الدين من مصر وفى قلبه الداء الدوى منها، لأنه شاهدها وشاهد مغلاتها فوجدها أمرا عظيما، فأخذ نور الدين فى تهوين أمر مصر عليه وأقطعه

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٤.

«حمص» وأعمالها»[١].

وفى عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م كتب الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٧١ م) إلى نور الدين محمود مستغيثا به من الحملة الصليبية التى هاجمت مصر فى بداية عام ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م، فأرسل نور الدين محمود حملة ثالثة

إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، وقد أورد ابن أبى طى تفاصيل المراسلات التى دارت بين العاضد لدين الله و نور الدين محمود، فقال: «ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر، و أن الفرنج شحنوها بالرجال و العدد و جعلوها لهم

ظهرا، أشفق من ذلك، وطلب الإذن على العاضد ؛ فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أن البلاد قد ملكت علينا، و لم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى و تطلب نصرته ومعونته، فكتب جميع ذلك.... فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجا عظيما، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه، وأرسل الفقيه عيسى الهكارى إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصله، وبرسالة سرية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها»[٢].

وقد فسر ابن الأثير هذا الاتفاق، فذكر أنه تقرر فيه أن يكون للملك العادل نور الدين محمود ثلث دخل مصر، وأن يظل أسد الدين شيركوه مقيما فيها، مع منح قواته عدة إقطاعات داخل مصر[٣]، وعلى هذا الأساس أرسل نور الدين محمود حملته الثالثة إلى مصر لتحقق الأهداف المرجوة منها، ولتحصل على ما تقرر لها من امتيازات مادية وعسكرية فى مصر.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢٨ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

(٣) المصدر السابق، ج ٩ ، ص ١٠٠ .

وقد وصلت حملة أسد الدين شيركوه إلى مصر فى الوقت الذى أوشكت فيه الحملة الصليبية على الرحيل، و لهذا اعتبر نور الدين محمود بقاء حملته فى مصر بعد خروج الحملة الصليبية فتحا لها، لما سيتمتع به حسب اتفاقه مع العاضد من نفوذ داخل مصر، ولهذا أمر - كما أوضح «العماد الأصفهاني» - بضرب البشائر فى البلاد وبث رسله فى الآفاق مبشرين بذلك[١]. وقد أكد هذا أيضا ابن أبى طى فى روايته فقال: «و لما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية، فرح بذلك فرحا شديدا، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان فى زمنه وعلى يده ؛ وأمر بضرب البشائر فى جميع ولايته وتزيين جميع بلاده ؛ وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء فى فتحها عدة أشعار»[٢].

هكذا كانت العلاقة بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود خلال الحملات الثلاث التى أرسلها بقيادته إلى مصر، وحتى ذلك الحين كانت العلاقات بينهما طيبة، ولم تخرج عن نطاق العلاقة بين الحاكم وقائد قواته الذى ينفذ ما يسند إليه من مهام. ثم حدث بعد ذلك تغير كبير فى العلاقات بينهما بعد وصول الحملة الثالثة إلى مصر، وقد أظهرت

كتابات ابن أبى طى هذا التغير الذى حدث بعد عشرة أيام من دخول الحملة القاهرة.

وكان أسد الدين شيركوه قد دخل مدينة القاهرة فى السابع من ربيع الآخر فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، ثم قام اثنين من كبار قواده بقتل الوزير الفاطمى شاور السعدى فى السابع عشر من ربيع الآخر[٣]، وطبقا للتقاليد الفاطمية المتبعة منذ أن ضعفت الدولة الفاطمية[٤] أسند الخليفة العاضد لدين الله الوزارة فى مصر إلى شيركوه باعتباره كان

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠ . وانظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٠ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٤ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٤) ابن شداد : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٤٠، ٣٦؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٣٧-١٣٨ .

صاحب أكبر قوة عسكرية فى مصر فى ذلك الوقت[١]، وبذلك أصبح أسد الدين شيركوه هو الحاكم الفعلى لمصر، وبمعنى آخر صار الحكم فى مصر للأسرة الأيوبية.

وقد أوضحت كتابات ابن أبى طى أن نور الدين محمود قابل خبر تولى أسد الدين شيركوه السلطة فى مصر باستياء شديد، وانفرد بذلك بذكر هذا التحول الكبير فى العلاقة بينهما، فى آخر ما وصلنا من كتاباته عن تاريخ العلاقات بينهما. وقد اعتمد ابن أبى طى فى جمع كتابته عن هذا الموضوع على عدة روايات شفهية حدثه بها جماعة عن أحد أهم الأشخاص المقربين من نور الدين محمود، وهو «مجد الدين بن الداية»، كذلك اعتمد على رأى الفقيه الحلبى «الموفق محمود بن النحاس»، كما أورد ابن أبى طى جزءا من كتاب أرسله نور الدين محمود إلى الخليفة العاضد، وفيه ألمح نور الدين إلى حاجة دولته فى الشام إلى جهود أسد الدين شيركوه، وقد فسر ابن أبى طى إرسال نور الدين هذا الكتاب بأنه كان يريد إخراج شيركوه من مصر.

قال ابن أبى طى: «غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزر للعاضد، واستبد بالأمر فى ذلك الصقع «أمضه»[٢] ذلك وأقلقه[٣]، وظهرت فى «مخايل»[٤] قسماته وفلتات كلماته الكراهة، و أخذ فى الفكرة فى أمره و{سهر له ليالي}[٥] وأفضى بسره إلى مجد الدين بن الداية. ثم قال: حدثنى جماعة عن شمس الدين على ابن الداية، أخى مجد الدين ، وحدثنى «الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي»

وقد جرى ذكر فتح مصر وأن نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به لقد كان

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ .

(٢) أمضه : أي الجرح أوجعه ، و المضض وجع المصيبة (الرازي : مختار الصحاح ، ص ٦٥١) .

(٣) أتفق ابن كثير مع ما ذكره ابن أبي طي في هذا الجزء . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٧٤) .

(٤) مخايل : ذى مخيلة أي ذو كبر . (الرازي : مختار الصحاح ، ص ٢١٥) .

(٥) في طبعة « دار الجيل » : « وسهره ليالي » (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٢) .

ودّه أن لا يفتح، وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين[١] إلى ما صاروا إليه. ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك فى ألفاظه ووجهه. ولقد أعمل الحيلة فى إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين[٢]، فما تهيأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه ؛ واهتم لذلك حتى أفضى عليه الهم. ولو لم يكن الفتح إليه منسوبا، وعليه فضله محسوبا، لما صبر على ما جرى، و لا «أغضي» الملك العادل على «القذي»[٣]. ولقد كاتب العاضد عدة دفعات فى أمر الأسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح[٤] وكثيرا ما يوجد فى كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال. فمن بعض مكاتباته: «و لقد افتقر العبد إلى بعثته، وأعوذ عسكره يُمن نقيبته، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمى شياطين الضلال بشهابه الثاقب و«يُصْمي»[٥]«مقل»[٦] الشرك بسهمه النافذ الصائب»[٧].

وفى حقيقة الأمر فقد كانت كتابات ابن أبى طى عن هذا التحول فى العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه، والذى سيستمر من بعده مع صلاح الدين سببا فى توجيه الكثير من اللوم عليه، واتهمه لذلك المؤرخون بأنه لم يكن يؤرخ لتلك الأحداث بموضوعية، وأنه كان يضمر شيئا من التحامل على نور الدين محمود، ذلك لأن ابن أبى

---

(١) سنوضح كتابات ابن أبي طي عن العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين بعد عرض كتاباته عن العلاقة بين نور الدين محمود و أسد الدين شيركوه .

(٢) أورد المقريزي ملخصا لرواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٤) .

(٣) أغضى علي القذى : يقال فلان يُغْضي علي القَذى إذا سكت علي الذل و الضيم وفساد القلب . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٧٨) .

(٤) ذكر المقريزي ما أورده ابن أبي طي عن مكاتبات نور الدين للخليفة العاضد . (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٤) .

(٥) يُصْمي : أصْمَيت الصيد إذا رميته فقتلته . وأصْمي الرمية : أنفذها . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٤١٥) .

(٦) المُقْلة : العين . (المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٥٦) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ .

طى كان شيعى المذهب[١]، وكان نور الدين محمود قد قام بمنع شعائر الشيعة فى حلب

منذ عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م[٢]، ونفى زعمإهم وفى مقدمتهم والد ابن أبى طى[٣].

ولهذا فسوف نهتم فى هذا البحث بالتحقق من مدى موضوعية ابن أبى طى تجاه ما كتبه عن العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه، ومن بعده مع صلاح الدين وذلك من خلال مقارنة ما أورده من آراء مع كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث وأيضا المعاصرين لابن أبى طى، ومن أبرزهم: العماد الأصفهانى وابن الأثير وابن شداد. ومن بالجدير بالذكر أن نشير إلى أن هؤلاء المؤرخين لم يتناولوا فى كتاباتهم بعض جوانب العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية، فى حين اهتم ابن أبى طى بذكر معظم هذه الجوانب وأنفرد بذكر كثير من الآراء التى أخذت عليه، وهذا مما زاد من صعوبة التحقيق.

ومن هذه الآراء التى انفرد بها، روايته عن استياء نور الدين محمود من ولاية أسد الدين شيركوه الوزارة فى مصر، وفى اعتقادنا أن ما ذكره ابن أبى طى أمرا بالغ الأهمية، لأنه إذا سلمنا بصحة روايته، فتعد تسجيلا لبداية الخلاف بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية بعد توليها الحكم فى مصر، لأنه إذا كان هذا موقف نور الدين من ولاية شيركوه الذى كان يرتبط معه بعلاقة قوية دامت لأكثر من ربع قرن، أظهر فيها شيركوه تميزا فى خبرته العسكرية الطويلة، فما بالنا بعلاقة نور الدين محمود بعد ذلك مع صلاح الدين بعد ولايته الوزارة عقب وفاة عمه شيركوه، والذى كان شابا ولا مجال للمقارنة مع عمه، سواء فى علاقته مع نور الدين أو فى خبرته العسكرية، ولهذا سجلت كتابات كثير من المؤرخين ما يوضح سوء العلاقة بينهما الذى وصل إلى الحد الذى قرر فيه نور الدين محمود غزو مصر فى

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤١ ؛ هاملتون : صلاح الدين ، ص ٧١ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٦٨ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤١ ؛ الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٣٥ ؛ نظير سعداوي : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ٣ ، ٥ .

عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، ولكنه توفى قبل أن ينفذ ما عزم عليه[1].

ومن ناحية أخرى إذا حاولنا التحقق من مدى صحة رواية ابن أبى طى، فليس أمامنا سوى الإجابة على سؤال واحد، وهو لماذا اعتبر نور الدين محمود مجرد وصول حملته بقيادة شيركوه إلى مصر بعد رحيل الحملة الصليبية فتحا لها فى ظل بقاء وزير فاطمى لا يؤتمن على تنفيذ وعوده، وفى الوقت نفسه استاء من قتل هذا الوزير وتولى قائد قواته

بدلا منه الحكم الفعلى لمصر ؟ وبمعنى آخر لماذا كان نور الدين محمود يفضل بقاء شيركوه كقوة عسكرية فى مصر فى ظل سلطة سياسية أخرى، ولا يفضل جمع شيركوه بين السلطتين العسكرية و السياسية ؟

التفكير المنطقى لإجابة هذا التساؤل لا يفسر لصالح رأى ابن أبى طى، حيث إنه من المفترض أن ولاية شيركوه الوزارة فى مصر، فى ظل وجود خليفة لا حول له ولا قوة، يعد بحق فتحا لمصر.

ومن ناحية أخرى: إذا افترضنا أن ابن أبى طى كان يضمر شيئا من التحامل على نور الدين محمود فى تفسيره لموقفه المنافى للمنطق، فهل كان هذا منهجا عاما فى كتاباته عن تاريخ العلاقات بين نور الدين محمود و أسد الدين شيركوه ؟ وهناك أيضا تساؤل آخر يساهم فى تحقيق رأى ابن أبى طى، وهو هل سبق أن سمح نور الدين محمود لأسد الدين شيركوه بممارسة دورا واضحا فى شئونه السياسة فى بلاد الشام بالإضافة إلى توليه قيادة جيشه ؟

فى حقيقة الأمر أن ما وصلنا من كتابات ابن أبى طى عن تاريخ العلاقات بين نور

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٤ ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٧ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨١ ـ ٥٨٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٩ .

الدين محمود و أسد الدين شيركوه، كان ضمن كتابه الذى أرخ فيه للسيرة الصلاحية، وهذا الكتاب قام بتأليفه أثناء إقامته فى حلب فى فترة ولاية الملك الظاهر بن صلاح الدين (٥٨٢ ـ ٦١٣ هـ / ١١٨٦ ـ ١٢١٦ م) ومن بعده فى فترة ولاية الملك العزيز بن الملك الظاهر (٦١٣ ـ ٦٣٤ هـ / ١٢١٦ ـ ١٢٣٦ م)، ولهذا فمن المتوقع أن يغلب على كتاباته فى كثير من الأحيان طابع المدح فى أصل الأسرة التى تتولى الحكم فى حلب طوال فترة حياته، وأيضا أن يفسر هذا المدح على أنه تحامل فى كتاباته على نور الدين محمود.

وقد ظهر هذا من خلال كتابات ابن أبى طى عن دور أسد الدين شيركوه فى ولاية نور الدين محمود حلب فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، و التى أوضحناها فى مقدمة كتابات ابن أبى طى عن العلاقة بينهما، وقد غلب على أسلوبه فيها طابع المدح، وأعطى شيركوه مكانة كبيرة، وجعله صاحب الفضل الأول فى ولاية نور الدين حلب سياسيا وعسكريا، وقد يحمل هذا المدح معنا آخر، ويفهم على أن ابن أبى طى يريد الإقلال من شأن نور الدين محمود، و أنه لولا جهود شيركوه ما كان وضع أساس دولته فى حلب.

أما بالنسبة لطبيعة العلاقة بين نور الدين محمود وشيركوه بعد ولايته حلب، فقد أظهرت كتابات ابن أبى طى السابقة تفوق أسد الدين شيركوه العسكرى فى دولة نور الدين حتى صار قائدا لقواته، وفى الوقت نفسه أوضحت كتاباته أن نور الدين محمود أبعد شيركوه عن تدبير شئون الدولة السياسية، وذلك منذ أن تولى حلب فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، حيث ذكر إنه: «مال... إلى «مجد الدين أبو بكر بن الدايه» حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته»[1].

وقد يفهم ذلك على أن ابن أبى طى كان متحاملا على نور الدين محمود لأنه بعد ما أظهر الدور الكبير الذى قام به شيركوه مع نور الدين عند ولايته حلب، أوضح أنه أبعده عنه بعد ما استقرت أحواله، وقد كانت هذه فرصة طيبة لابن أبى طى لو كان يريد أن

(١) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٤.

يظهر نور الدين بصورة سيئة، ولكننا وجدناه بعد ذلك يذكر المبررات المنطقية التى كانت وراء قرار نور الدين، فذكر أنه أبعد شيركوه عنه على أثر دخول مدينة «بعلبك» ووالیها «نجم الدين أيوب» ـ أخو شيركوه ـ فى دائرة سلطة إمارة دمشق لأنه: «خاف أن يَفْسُد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده»[1]، كما ذكر أيضا جملة أخرى تشير فى مضمونها إلى سبب إبعاده عنه عندما ذكر أن شيركوه كان: «يمن (عليه) بأنه كان السبب فى توليته»[2].

وقد لاحظنا طوال تاريخ العلاقات بينهما التى سجلتها كتابات ابن أبى طى أن أسد الدين شيركوه ظل بعيدا عن تدبير شئون نور الدين محمود السياسية، وأن أقصى ما مكنه منه نور الدين محمود كان إسناد أمر دمشق وحمص إليه، كما ذكرنا من قبل.

ولكن من الواضح أن طموح شيركوه فى أن يكون له دور فى السلطة السياسية كان أكبر من ذلك، وقد ظهر هذا منذ ولاية نور الدين محمود حلب فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، حيث ذكر ابن أبى طى أنه استاء من تقديم نور الدين محمود مجد الدين ابن الداية، وإسناده إليه جميع أموره. وقد عبر ابن أبى طى عن موقفه هذا بقوله: «فشق ذلك على أسد الدين»[3]، وقد ظل أسد الدين شيركوه متأثرا بهذا الأمر، وظهر ذلك أثناء موقعة «يغرا» فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، حيث أوضح فيها ابن أبى طى أنه قصر فى أداء واجبه العسكرى فى هذه المعركة فقال: «أن أسد الدين لما كان فى نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهى واقعة «يغرا». ولما سأله نور الدين عن أسباب ذلك قال له: «إيش ننفع نحن ؟ إنما ينفع مجد الدين أبو بكر، فهو صاحب الأمر»[4].

ولعل المكانة العسكرية الكبيرة التى حظى بها أسد الدين شيركوه فى دولة نور الدين

(١) المصدر نفسه و الصفحة .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

محمود فى بلاد الشام قد أرضت جانبا كبيرا من طموحه، ولكن من الواضح أن حملاته على مصر قد أيقظت بداخله طموحه القديم فى أن يقوم بدور فعال فى مقاليد الأمور فى دولة نور الدين محمود. وقد ألمح ابن أبى طى إلى رغبة شيركوه فى ولاية مصر، فقال عند خروج حملة شيركوه الثانية من مصر فى عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م: «وخرج أسد الدين من مصر وفى قلبه الداء الدوى منها.. فأخذ نور الدين فى تهوين أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها»[١]. وقال أيضا عند إعداد نور الدين محمود للحملة الثالثة: «وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه»[٢].

ومن المؤكد أن نور الدين محمود بحكم خبرته الطويلة مع أسد الدين شيركوه كان مدركا لمدى طموحه خاصة بعد إرساله فى عدة حملات إلى مصر. وقد أكد ابن أبى طى هذا بقوله: «ويقال أنه (نور الدين محمود) لما مرض قال: ما أخطأت إلا فى إنفاذى أسد الدين إلى مصر بعد علمى برغبته فيها»[٣].

ومن خلال كل ما سبق فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن ما ذكره ابن أبى طى عن استياء نور الدين محمود من ولاية شيركوه الوزارة الفاطمية أمرا لا يخلو من الحقيقة.

وكان أبو شامة قد فسر رواية ابن أبى طى بقوله: « لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب هذا إن صح ما نقله ابن أبى طي»[٤].

على أى حال لم تدم وزارة أسد الدين شيركوه فى مصر سوى شهرين، حيث توفى فى جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، وخلفه فى منصب الوزارة ابن أخيه صلاح الدين،

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١، ص ٤٢٨ .

(٢) أبو شامة : المصدر نفسه ، ص ٤٣٢ .

(٣) أبو شامة : المصدر نفسه ، ص ٤٤١ .

(٤) أبو شامة : المصدر نفسه ، ص ٤٣٧ .

حيث وقع اختيار الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله عليه من بين القادة الذين كانوا ضمن حملة أسد الدين شيركوه فى مصر فى ذلك الوقت[1].

ثانيا: العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين فى مصر:

عرضنا من قبل ما أورده ابن أبى طى عن طبيعة العلاقة بين نور الدين محمود وأولاد نجم الدين أيوب، وتحديدا مع ولده «يوسف الملقب بعد ذلك بصلاح الدين»، منذ أن التحق بقوات نور الدين محمود فى عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م وأوضحنا كيف توطدت العلاقة بينهما حتى أصبح صلاح الدين من خواصه. ثم ذكر ابن أبى طى بعد ذلك أن هذه العلاقة لم تدم طويلا، وتبدلت بعد ولاية صلاح الدين الوزارة فى مصر فى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، وأوضح أن ولايته لها كانت وراء هذا التغيير فى العلاقة بينهما.

وقد اهتم ابن أبى طى بتتبع الدلائل الدالة على استياء نور الدين محمود من صلاح الدين منذ ولايته الوزارة، وانفرد بهذا الاهتمام المبكر بين أقرانه من المؤرخين الذين أرخوا لتاريخ الدولة الأيوبية مثل العماد الأصفهانى وابن الأثير وابن شداد، ولهذا وجدنا صعوبة فى التحقق من موضوعية ابن أبى طى فى كتاباته عن هذه العلاقة فى تلك الفترة المبكرة، خاصة أن هؤلاء المؤرخين بدأوا الكتابة عن سوء العلاقة بينهما منذ عام ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ حتى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وهناك بعض الدلائل التى ذكرها ابن أبى طى أكدها هؤلاء المؤرخون بعد ذلك والبعض الآخر انفرد به. وكانت أولى هذه الدلائل:

١- حث نور الدين محمود أمراءه فى مصر على مفارقة صلاح الدين:

اعتمد ابن أبى طى فى هذا الرأى على ما حدثه به «والده» عن بعض أصدقاء نور الدين فقال: «حدثنى أبى قال: حدثنى جماعة من أصحاب الملك العادل نور الدين محمود بن الملك المنصور عماد الدين أتابك زنكى ـ صاحب الشام ـ أن السلطان نور الدين ....

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

كاتب مَنّ عند الملك الناصر، من الأمراء بتركه بمصر، بناء منه على أنه يقتل أو يعجز عن المقام»[١].

وهذا الرأى نفاه ابن الأثير فى سياق ذكره لأسباب مغادرة بعض الأمراء النورية مصر، وأرجع سبب مغادرة أحد هؤلاء الأمراء - وهو «عين الدولة الياروقي» - إلى رفضه العمل تحت قيادة صلاح الدين لأنه كان يعد من كبار الأمراء النورية فى مصر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أوضح ابن الأثير أن نور الدين محمود لام هؤلاء الأمراء الذين تركوا صلاح الدين و «وأنكر عليهم فراقه»[٢].

٢ - موقف نور الدين محمود من ولاية صلاح الدين الوزارة:

قال ابن أبى طى: «و حدثنى أبى رحمه الله تعالى قال: حدثنى جماعة من أصحاب[٣] الملك العادل[٤] نور الدين[٥] محمود بن الملك المنصور عماد الدين زنكى صاحب الشام[٦] أن[٧] السلطان[٨] نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين[٩] يوسف[١٠]

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٦ .

(٢) الكامل ، ج٩ ، ص ١٤٢ ؛ الباهر ، ص ١٤٢ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٠ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٤ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦ .

(٤) إضافة من ابن الفرات (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦ .

(٦) إضافة من ابن الفرات (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٦٦ .

(٨) إضافة من ابن الفرات (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

(٩) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٦٦ .

(١٠) إضافة من ابن الفرات (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

وما قد انعقد له من المحبة فى قلوب الرعايا[١] أعظم ذلك[٢] وأكبره وتأفف منه وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئا بغير أمرى ؟ و كتب فى ذلك عدة كتب[٣]. فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه و إشارته»[٤].

أكد «المقريزي» هذا الموقف الذى ذكره ابن أبى طى - وهو من المؤرخين اللاحقين به - وروى رواية أخرى تحمل نفس المعنى فقال: «فلما بلغ نور الدين استيلاء صلاح الدين أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه وأغضبه[٥].

أما بالنسبة لما ذكره ابن أبى طى عن طاعة صلاح الدين لنور الدين محمود، فقد كان ذلك بالفعل من سمات علاقته معه، وأكدها «العماد الأصفهاني» فى مواقف أخرى[٦].

٣ - إرسال نور الدين محمود أهل وأصدقاء صلاح الدين إليه:

أورد ابن أبى طى دليلا آخر أورده أيضا عن والده، فقال: «وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه تثقيلا عليه»[٧].

وقد نفى هذا الاتهام كلا من العماد الأصفهانى وابن الأثير، حيث أوضح العماد أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان قد استأذن نور الدين محمود فى الخروج إلى صلاح

---

(١) إضافة من أبو شامة (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٦ .

(٣) أورد ابن كثير ملخصا لرأي ابن أبي طي في هذا الجزء انظر (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٧٥)

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٤١ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ق ١ ، ص ٦٦ .

(٥) اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٣١٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٧) أبو شامة : المصدر السابق ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٤٠ - ٤٤١ .

الدين فى مصر فى عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٠ م، فأذن له بذلك وخرج نور الدين لحمايته، وأكد ابن الأثير أن صلاح الدين هو الذى راسل نور الدين محمود و طلب إرسال أهله وأصدقاءه، فرفض نور الدين طلبه، وقال له: «أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد»[١]. وجدير بالذكر أن نشير أن ابن أبى طى ذكر بعد ذلك فى أحداث عام ٥٦٥ هـ/ ١١٦٠ م ما يتعارض مع هذه الرواية التى أعتمد فيها على رأى والده حيث أوضح أن نور الدين أرسل نجم الدين أيوب إلى مصر بقصد حث ولده على قطع الخطبة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية.

٤ – محاسبة نور الدين صلاح الدين حول دخل مصر:

قال أيضا ابن أبى طى عن والده: «وعنته بالمطالبات وحمل الأموال[٢] وطلب منه حساب مصر وما صار إليه[٣]، وكان كثيرا ما يقول: ملك ابن أيوب[٤]»[٥].

وهذا الموضوع سوف نناقش رأى ابن أبى طى فيه فى ختام كتاباته عن العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين، لأنه سيتناوله مرة أخرى بمزيد من التفصيل.

٥ – حل نور الدين محمود إقطاعات أقارب شيركوه وصلاح الدين فى الشام:

قال ابن أبى طى: «وتتبع أصحاب أسد الدين وصلاح الدين والمتعصبين له، وأمر

---

(١) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٢، ١٠٦ ؛ الباهر ، ص ١٤٣ . وانظر أيضا : ابن شداد : النوادر ، ص ٤٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٠، ٣١٦ .

(٢) إضافة من ابن الفرات (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

(٣) إضافة من أبو شامة (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤١) .

(٤) أورد كل من ابن كثير والمقريزي نفس رواية ابن أبي طي في هذا الجزء . انظر : (ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٧٥ ؛المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١١) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ، ق ٢ ، ص ٤٤١ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦ .

بحل إقطاع أسد الدين وصلاح الدين[١]. قال: ولما ملك الناصر مصر[٢] «أنتزع»[٣] نور الدين «حمص»[٤] من نواب أسد الدين[٥]، و«الرحبة» من «ناصر الدين ابن أسد الدين»[٦]، و فرق عماله وأعطاه «تل باشر» ثم أخذها منه[٧]»[٨].

أكد «ابن شداد» ما رواه ابن أبي طي في هذا الموضوع عن قيام نور الدين محمود بأخذ حمص من ناصر الدين محمد بن شيركوه فقال: «ولما عرف نور الدين استقرار أمر السلطان بمصر، أخذ حمص من نواب أسد الدين، وذلك في رجب من سنة أربع وستين وخمسمائة»[٩].

وفي رأينا أن رواية ابن أبي طي وابن شداد عن العلاقة بين ولاية صلاح الدين الوزارة وانتزاع نور الدين محمود حمص من ناصر الدين بن شيركوه أمرا مبالغ فيه. وقد يكون ناصر الدين في رأي نور الدين لا يصلح لقيادة ثغر هام مثل «حمص»، والذي كان قد ولاه لوالده في عام ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م نظرا لحاجة هذا الثغر - كما يقول العماد الأصفهاني.

---

(١) إضافة من ابن الفرات (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

(٢) إضافة من أبو شامة (الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤١)

(٣) في نص ابن الفرات : « أخذ » . (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤١ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦

(٥) إضافة من ابن الفرات (تاريخه ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٦) .

(٦) هو الملك ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه : قيل عنه أنه كان متطلعا إلى السلطنة ويدعي أنه أحق بها من صلاح الدين ، ولما توفي والده أخذ نور الدين محمود منه حمص في رجب ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م ، ثم أعادها إليه صلاح الدين بعد ذلك ، وتوفي في حمص في يوم عرفة عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٦ م ، وبعد وفاته أبقى صلاح الدين أملاكه (حمص - تدمر - الرحبة - سلمية) مع ولده أسد الدين شيركوه . (ابن خلكان : نفس المصدر و الجزء ، ص ٤٨٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٩٩ - ١٠٠ ؛ العماد الحنبلي : شذرات ، ج ٤ ، ص ٢٧٣) .

(٧) أورد المقريزي نفس رواية ابن أبي طي انظر : (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١١) .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤١.

(٩) النوادر السلطانية ، ص ٤١ . وانظر أيضا : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٥.

لكفاءة وشجاعة شيركوه[١]، ومما يؤكد ذلك أن نور الدين عوض ناصر الدين عن حمص بما قد يتناسب مع كفاءته فأعطاه كما ذكر ابن أبى طى تل باشر

أما بالنسبة لما أورده ابن أبى طى عن الإقطاعات الأخرى التى قام نور الدين بحلها فلم نجد فى كثير من المصادر العربية ما يؤكد هذا الموضوع، ووجدنا فى كتابات العماد الأصفهانى ما يؤكد بقاء إقطاع نجم الدين أيوب والد صلاح الدين معه حتى سفره إلى صلاح الدين فى مصر فى عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م[٢].

٦ - اتهام نور الدين محمود صلاح الدين بالتشيع:

قال ابن أبى طى: «حدثنى أبى قال:..... وأكثر عليه الشائعات، وقرفه بأشياء منها «الرفض» وبدا منه ما يليق بالذكر»[٣]. وهذا الاتهام انفرد به ابن أبى طى.

٧ - ندم نور الدين محمود على إيفاد شيركوه وصلاح الدين إلى مصر:

قال ابن أبى طى: «و لقد كان يتألم لـمُلك المَلك الناصر ويقال أنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا فى انفاذى أسد الدين إلى مصر بعد علمى برغبته فيها، و ما يحزننى شئ كعلمى بما ينال أهلى من يوسف بن أيوب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابنى «إسماعيل»[٤] إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها»[٥].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤ .

(٢) قال العماد : « شرع (نجم الدين) في تفريق أملاكه وتوفير ماله ... ولم يستصحب شيئا من موجوده و جعله نهبة جُوده » . (سنا البرق، ص ٤٧)

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦ .

(٤) الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود : تولي الحكم بعد وفاة والده في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م وكان يبلغ من العمر أحد عشر عاما، فتولي « سعد الدين كمشتكين » تدبير أموره في حلب، وظل الملك الصالح واليا عليها حتى وفاته بها في عام ٥٧٧ هـ (ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٢٦، ١٣١، ١٥٣) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١.

٨ - موقف صلاح الدين من تغير نور الدين محمود عليه:

قال ابن أبى طى: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه و تمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب. حدثنى أبى عن «ابن قاضى الدهليز»، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوما بين يدى السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه، ثم قال: و الله لقد صبرت منه على مثل حزّ «المدي»[1] ووخز الإبر، و ما قدر أحد من أصحابه أن يجد على ما يعتده ذنبا ، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضا أن يجد لى هفوة يعتدها على فلم يقدر، ولقد كان يعتمد فى مخاطباتى ومراسلاتى على الأشياء التى لا يُصبر على مثلها لعلى أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتى فما أبلغته أربه يوما قط »[2].

أكد ابن الأثير ما ذكره ابن أبى طى بشأن مراسلات نور الدين، فقال: «كان نور الدين يكاتبه بالأمير «الاسفهسلار»، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب، بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين ». ولقب «الأمير الاسفهسلار» كان يُطلق كما يقول المقريزى على قائد الأجناد، وهو يلى المرتبة الثالثة فى الترتيب الوظيفى بعد الوزير وصاحب الباب[3]. ومن هنا يظهر لنا كيف كان فى مراسلة نور الدين صلاح الدين بلقب الأمير الاسفهسلار فقط إقلالا من شأنه كوزير لمصر. ونستطيع أن نقول أن مراسلة نور الدين له بهذا اللقب كان يعنى أيضا أنه لا يعترف به إلا كقائد للجيش خلفا لعمه، وليس كوزير للخلافة الفاطمية فى مصر، وفى هذا تأكيد آخر لما ذكره ابن أبى طى من قبل عن استيائه من ولايته الوزارة.

---

(١) المُدَي : جمع مُدَّية وهي السكين و الشفرة . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٥٧) .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

(٣) الكامل ، ج٩ ، ص ١٠٢ ؛ الباهر ص ١٤٢ - ١٤٣ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٨ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٣ ؛النويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٥٩ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٧٤ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١١ ، ٣٣٥ - ٣٣٦ .

٩ - موقف نور الدين محمود من تأخر صلاح الدين فى إعلان الخطبة العباسية:

قال ابن أبي طي: «عام (٥٦٦ هـ) قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين، رحمه الله، وإلحاحه على صلاح الدين فى إقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين فى ذلك. ولما ولى ابنه المستضئ أقبل أيضا على مكاتبة نور الدين فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين فى طلبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه، وأكثر القول فى ذلك»[1].

أكد كثير من المؤرخين ما أورده ابن أبى طى عن موقف نور الدين محمود إزاء تأخر صلاح الدين فى إقامة الخطبة العباسية. فقال ابن الأثير: «فلما اعتذر إلى نور الدين لم يقبل عذره و ألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاما لا فسحة له فى مخالفته». وقال النويرى: «فلما ورد جوابه على نور الدين بالاعتذار انزعج لذلك، ورادف رسله إليه يأمره بخلع العاضد والقبض عليه». وقال أبو المحاسن: «أرسل إليه وخشن له فى القول». ولعل سبب انزعاج نور الدين هو أنه كان - كما أوضح المقريزى - : «فى ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه فى مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه»، فكيف لا ينفذ أمره. ولعل هذا ما جعل صلاح الدين يؤجل إقامة الخطبة العباسية خوفا من نور الدين، فإنه كان - كما يقول ابن الأثير - « يخشى أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد يكون العاضد معه حتى إن قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه»[2].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١١١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ ؛ ابن واصل: المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ النويري : المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٤٤ ؛ المقريزي :المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦، ص ٧

١٠ - هدايا صلاح الدين إلى الخلافة العباسية وإلى نور الدين محمود:

قال ابن أبى طى (فى أحداث عام ٥٦٨ هـ): «وأرسل إلى الخليفة ببغداد «من ذلك»[١] هدايا سنية نفيسة[٢]، وكذلك إلى الملك نور الدين، أرسل إليه من ذلك جانبا كثيرا صالحا، ولم يدخر شيئا مما حصل له من الأموال، بل كان يعطى ذلك من حوله من الأمراء وغيرهم. فكان مما أرسله إلى نور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واحد وثلاثون مثقالا، و الأخرى ثمانية عشر مثقالا، والثالثة عشرة مثاقيل، وقيل: أكثر، مع لآلى كثيرة، و«ستون ألف دينار»، وعطر لم يسمع بمثله، ومن ذلك حمارة وفيل عظيم جدا، فأرسلت الحمارة إلى الخليفة فى جملة هدايا»[٣].

أكد العماد الاصفهانى ما أورده ابن أبى طى عن وصف الهدية، ومن المرجح أنه اعتمد فى وصفه لها على كتابات العماد هذا من ناحية[٤]، أما بالنسبة لرواية ابن أبى طى عن إسراف صلاح الدين فقد لاحظنا من خلال كتابات العماد الأصفهانى ما يؤيد روايته، وكان العماد قد ذكر أن صلاح الدين قام بمنح الشاعر «العرقلة» عشرين ألف دينار بعد ملكه مصر، لأنه كان قد وعده أثناء وجوده معه بدمشق أن يعطيه ألف دينار إذا ملك مصر، فلما ملك صلاح الدين مصر أرسل إليه العرقلة أبياتا يُذكره فيها بما وعده فأعطاه صلاح الدين عشرين ألف دينار، وأخذ له من أخوته مثله !!، وهذا يعنى أن هذا الشاعر جمع ما يوازى أربعين ألف دينار، فى حين أرسل صلاح الدين ستون ألف دينار فقط إلى

---

(١) أي الذخائر الفاطمية .

(٢) لم يرسل صلاح الدين الهدايا مباشرة إلي الخليفة، وكان قد أرسل إلي نور الدين جملة هدايا، فتخير نور الدين من بينها بعضها وأرسلها إلي الخليفة (العماد الأصفهاني : سنا البرق ، ص ٦٥) .

(٣) ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٨٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٤ ـ ٦٥ . وانظر أيضا : أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٦ (رواية العماد) ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٠ .

نور الدين مع باقي الهدايا[١].

١١ - وصول رسول نور الدين محمود إلى صلاح الدين لمحاسبته:

قال ابن أبي طي (في أحداث عام ٥٦٨ هـ): «لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، و جرّد «الموفق بن القيسراني»[٢] وزيره إلى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها، وأين صرفت أموالها؛ فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة. وعظُم على نور الدين أمر مصر، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعِد، و أكثر في مراسلته في حمل الأموال.

حدّثني أبي قال: لم {تخف}[٣] حال نور الدين في كراهية الملك الناصر؛ ولقد علم ذلك جميع الأجناد والأمراء و تحدثت به العوامّ، و لاسيما حين أنفذ هذه الهدية. واشتد بعد ذلك في مراسلته، وأنفَذ ابن القيسراني لكشف الأحوال؛ ولو طال عمره لم يكن له بدّ من {الدخول إلى مصر[٤]}»[٥][٦].

أكد العماد الأصفهاني ما ذكره ابن أبي طي عن موقف نور الدين محمود من هدية صلاح الدين، وعن إيفاد ابن القيسراني لحساب دخل مصر، فقال: «فشكر نور الدين همته وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال... فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٩-٤٥٠ (رواية العماد).

(٢) موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني: تولى الوزارة للملك نور الدين محمود، كما رأس له أيضا «ديوان الاستيفاء». (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٦٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٣٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٣٢؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥١).

(٣) في طبعة «دار الجيل»: «يخف». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٠٦).

(٤) في طبعة «دار الجيل»: «دخول مصر». (المصدر نفسه و الصفحة).

(٥) أورد المقريزي ملخصا لرواية ابن أبي طي في هذا النص انظر (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥١)

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٥ (طبعة دار الكتب).

فقر إلى الذهب.. واستقل المحمول». وفى رواية أخرى قال العماد الأصفهانى: «وكان نور الدين منذ ملكت مصر يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل يستعين به على تحمل كلف الجهاد... وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده... فلما حمل من أخاير الذخائر ما حمله... تقدم إلى الموفق أن يمضى... ويعمل أيضا حيازة بالأعمال المصرية»[1].

أما بالنسبة لما جاء فى رواية ابن أبى طى على لسان والده خاصة تلميحه لغزو نور الدين محمود مصر،، فقد أكد ابن الأثير هذا الرأى ، وأوضح أن نور الدين محمود قبل وفاته فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م كان قد: «شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين.... فأرسل إلى الموصل و ديار الجزيرة و ديار بكر يطلب العساكر للغزاة... فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله»[2]. كما أكد هذا الرأى أيضا ابن شداد من خلال عرضه لأحد الروايات التى حكاها له صلاح الدين فقال: «حكى لى السلطان قال: «كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكاشف و يخالف و يشق عصاه، ويلقى عسكره بمصاف يرده إذا تحقق قصده، وكنت وحدى أخالفهم، و أقول: لا يجوز أن يقال شئ من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته»[3].

ثم وصل رسول نور الدين محمود إلى مصر فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وتناول ابن أبى طى تفاصيل هذا الموضوع فقال: «وفى هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق ابن القيسرانى إلى الديار المصرية، واجتمع بالسلطان الملك الناصر وأنهى إليه رسالة نور

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٦٨ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ٢٣٢ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٧٩٠

(٢) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٢٤ . وانظر أيضا : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨١ ـ ٥٨٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٩ .

(٣) النوادر ، ص ٤٧ .

الدين، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من{ارتفاع البلاد}[١]. فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصا لولا ما ثاب إليه من السكينة{والعقل[٢]}، {ثم أمر}[٣] بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم و تعيين «جامكياتهم» ورواتب نفقاتهم[٤]»[٥].

أكد العماد الأصفهاني ما رواه ابن أبي طي عن ضيق صلاح الدين من تحديد نفقاته وظهر ذلك من خلال ذكره رد صلاح الدين على رسول نور الدين محمود، فقال له:» وما يُضبط مثل هذا الإقليم العظيم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدولة و عظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة و الدعة على نعمائها، و قد تصرفوا فى مواضع لا يمكن انتزاعها، و لا يسمحون بأن ينقضى ارتفاعها»[٦].

١٢ – هدية صلاح الدين إلى نور الدين محمود:

انفرد ابن أبي طي بوصف تفاصيل الهدية التى أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين محمود مع رسوله فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وروايته عن هذا الموضوع فى غاية الأهمية لأنه كان قد اعتمد على النص الأصلى لوصف الهدية بخط ابن القيسرانى، كما تحدث مع أحد شهود العيان الذين رأوا الهدية وضبط منه أيضا وصفها.

تضمنت الهدية خمس ختمات قال ابن أبي طي فى وصفهم: «فلما حصل عنده جميع ذلك

(١) في طبعة « دار الجيل» . « المغل » . (أبو شامة :الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(٢) ساقطة من طبعة « دار الكتب » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٩ (طبعة دار الجيل) ؛ ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ (طبعة دار الكتب)) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » . « فأمر» . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩).

(٤) أورد كلا من ابن كثير والمقريزي رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع . انظر(ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١، ق ١، ص ٥٣) .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ (طبعة دار الكتب) .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٩ . وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد «الفقيه عيسى». قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسراني وهي: خمس «ختمات» ؛ إحداها ختمة ثلاثون جزءا مغشاة بأطلس أزرق، مُضبَّبة بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب بخط «يانس»[1] ؛ و ختمة بخط «راشد»[2]، مغشاة بديباج فُسْتُقي عشرة أجزاء ؛ و ختمة بخط «ابن البواب»[3] مجلدا واحد بقفل ذهب ؛ وختمة بخط مهلهل، جزء واحد ؛ و ختمة بخط «الحاكم البغدادي»[4] .

وتضمنت الهدية أيضا الكثير من الأحجار الكريمة قال ابن أبي طي: «ثلاثة أحجار «بلخش»، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، و حجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف ؛ ست قصبات زمرد، قصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث ؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثقايل ؛ وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس ؛ مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا ؛ خمسون قارورة دهن بلسان ؛ عشرون قطعة بلور ؛ أربع عشرة قطعة «جَزْع»، وذكر تفصيلها»[5].

---

(١) هو يانس الناسخ : عمل في خزانة الكتب الأفضلية عند قدومه من الشام إلي مصر في عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٥١) .

(٢) هو راشد بن إسحاق بن راشد أبو حليمة الكاتب : كان أديبا كاتبا شاعرا ، وعاصر الوزير « أبا جعفر بن عبد الملك ابن الزيات » الذي وزر للخليفة العباسي « المعتصم » (٢١٨ ـ ٢٢١ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) . وتوفي « راشد » إثر تعرضه لمرض شديد في طريقه إلي مكة . (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٩٤ ، ١٠٠) .

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور : نسبة إلي والده الذي كان يعمل بوابا . فاق « ابن البواب » في كتاباته المتقدمين وأعجز المتأخرين في الكتابة مثله . عمل لفترة في خزانة الكتب « لبهاء الدولة بن عضد الدولة » في شيراز وتوفي في عام ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢م (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ .

(٥) المصدر نفسه و الصفحة .

كما اشتملت الهدية على الكثير من الأوانى و الملابس والأقمشة المذهبة قال ابن أبى طى فى وصفها : «إبريق «يشم»، طشت يشم،«سقرق» ميناء{وذهب}[1] ؛ صحون صينى و«زيادي» و«سكارج» ؛ أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار ؛ كرتان وزن إحدهما ثلاثون رطلا بالمصرى والأخرى {و}[2] أحد وعشرون رطلا ؛ مائة ثوب أطلس؛ أربعة وعشرون {بقيارا}[3] مذهبة ؛ أربعة وعشرون ثوبا حريرى ؛ أربعة وعشرون ثوبا من الوشى حريرية بيض ؛ حلة فلفلى مذهبة ؛ حلة «مرايش» صفراء مذهبة. وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، عدة من الخيل و الغلمان والجوارى، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه[4]»[5].

ثم قال ابن أبى طى : «وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك، لأن الفقيه عيسى وابن القيسرانى وضعا عليها من {نهبها واستبدا}[6] بأكثرها. وقيل أنها وصلت جميعا إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فانفذ من ردها. قال: وحدثنى من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره»[7] .

(١) في طبعة « دار الجيل» . « مذهب» . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩).

(٢) ساقطة من طبعة « دار الجيل » . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩ (طبعة دار الجيل) ؛ ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ (طبعة دار الكتب)) .

(٣) في طبعة « دار الجيل » . « بيقارا» .(المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٩).

(٤) ذكر ابن كثير ملخصا لرواية ابن أبي طي عن هدية صلاح الدين ، وأورد المقريزي نفس نص روايته في هذا الموضوع انظر . (ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٤ ـ ٥٥) .

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩ (طبعة دار الكتب) .

(٦) في طبعة « دار الجيل » . « نهبهم و استبدوا » . (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٥٩ (طبعة دار الكتب) . .